

قبل البداية : تقوم هذه الدراسة على أساس مفهوم محدد للمنهج نلتزم به ، ومؤداه أن المنهج هو مجموعة العمليات العقلية الاستدلالية التي تستخدم في حل مشكلات العلم ، وبناء العلم نفسه في مرحلة ما من تاريخه . وهو مايعنى بالنسبة لهذا البحث أن مناهج البحث التاريخي تتطور في كل مرحلة من مراحل تطور علم التاريخ نفسه ، ومن ثم فإن هناك علاقة جدلية بين بنية العلم المعرفية ومناهج البحث في هذا العلم بحيث تناسب مناهج البحث المرحلة (التاريخية) في تطور العلم من جهة ، كما أنها تساعد العلم على الانتقال لمرحلة أخرى بمناهج جديدة من ناحية ثانية .

وتقوم هذه الدراسة ، أيضا ، على أساس من الجمع بين تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية وتطور علم التاريخ نفسه . ونحن مع الرأي القائل إن أى حديث عن المنهج بمعزل عن الحديث في العلم ومشكلاته عبث لا طائل من ورائه . ومن ثم ، فإن الدراسة تحاول أن توضح أن كل مرحلة من مراحل تطور الدراسات التاريخية قد اعتمدت على وسائل منهجية أساسية كانت تناسب البحث في مشكلات المعرفة التاريخية في حينها ، فضلا عن أن المراحل الجديدة في تاريخ تطور الدراسات التاريخية ومناهج البحث المرتبطة بها لم تكن تقضى على مناهج القديمة ، وإنما كانت تأخذ منها مكان الصدارة لتفسح بدورها المجال لمناهج جديدة في أى تطور لاحق للعلم ومناهجة *



تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية

قاسم عبده قاسم

* استندنا على الصياغة النظرية لهذه المشكلة في الدراسة القيمة التي أعدها الصديق الدكتور حسن عبد الحميد عن (أوهام المنهجية) وقد ناقش مشكلة الفصل بين البحث التاريخي والبحث في العلم نفسه ، وما ينتج من ذلك من أخطاء . وقد عرض لأبعاد المشكلة التي تنجم عن توهم أن المنهج يمكن أن يكون منفصلا عن العلم نفسه . انظر حسن عبد الحميد ، (أوهام منهجية) بحث في الكتاب التذكاري بمناسبة بلوغ الدكتور زكي نجيب محمود الثلاثين من عمره بصحابة . الدكتور زكي نجيب محمود ، مسوقا وأديبا ومعلما ، (الكويت ١٩٨٧م) ، ص ٣٩٥ - ٤٢٣

منذ بدأ الإنسان يسعى على سطح الأرض راوده سؤال مايزال يلح في طلب الإجابة حتى الآن : من أين ، ولماذا ، وإلى أين ؟

وعلى الرغم من أن الأسطورة ، والفكر الديني ، والفلسفة ، والعلم ، قد حاولوا جميعاً تقديم الإجابة على هذا السؤال اللغز المرتبط بوجود الإنسان في الكون ، فإن هذا السؤال مايزال ، بالنسبة للإنسان ، لغزاً محيراً مضمناً . ومايزال السؤال مطروحاً على نحو أو آخر .

وفي طيات المحاولات الدائبة التي بذلها الإنسان للحصول على إجابة مرضية لهذا السؤال ظهر (علم التاريخ) باعتباره أحد الأدوات التي يستخدمها الإنسان لفهم حقيقة الوجود الإنساني ، في ماضيه وحاضره ومستقبله . وهكذا تحددت ، منذ البداية ، قيمة المعرفة التاريخية بوظيفتها الثقافية / الاجتماعية . ومن ثم كانت المعرفة التاريخية ، سواء في شكلها الأول المثقل بالعناصر الأسطورية والدينية ، أو في تطورها الحالي الذي جعل من علم التاريخ علماً متعدد الفروع ، يطور مناهجه وتطوره مناهجه باستمرار لكي يقوم بوظيفته الثقافية / الاجتماعية في خدمة الإنسان نقول إن المعرفة التاريخية كانت ملازمة لوجود أية جماعة بشرية أيا كانت درجة غوها الحضاري . وفي غمار تلك الرحلة الطويلة التي قطعتها المعرفة التاريخية كانت تحاول الإجابة على الأسئلة التي يطرحها الإنسان في محاولته الدائبة لمعرفة ذاته ، وفي كل مرحلة من مراحل هذه المرحلة الطويلة كانت مناهج البحث تتطور بحيث تلبى غايات وحاجات الدراسات التاريخية في تلك المرحلة .

وليس من المتصور ، بطبيعة الحال ، أن الوظيفة الثقافية / الاجتماعية للمعرفة التاريخية كانت واضحة لدى الجماعات الإنسانية المبكرة بدرجة وضوحها الحالية ، بيد أن إحساس الجماعة الإنسانية بالحاجة إلى المعرفة التاريخية كان قائماً وموجوداً على الدوام . لقد كانت الجماعات البشرية في بداية رحلتها ، التي لم تتم بعد ، عبر الزمان تشعر بالحاجة إلى هذه المعرفة التاريخية ، ولكن وعي الإنسان بحقيقة هذا النمط من أنماط المعرفة ، ومناهج البحث التي تصلح لكل مرحلة من مراحل تطوره والأركان التي يقوم عليها ، لم يتحقق سوى بعد رحلة طويلة لعلم التاريخ في رحاب الزمان سارت في خط مواز لرحلة الإنسان نفسه . وفي أثناء هذه الرحلة تطورت مناهج البحث في التاريخ وتطورت بنيته المعرفية ، وتخطت طور التراكم والوصف ، وصولا إلى طور يحاول صياغة قوانين ونظريات تفسر حركة التاريخ ، وتنوعت مدارس فلسفة التاريخ التي تصوغ موضوعاتها على أساس المعرفة التاريخية والتفسير الوضعي لهذه المعرفة من ناحية ، ومحاوله الفهم التقويمي الأخلاقي لحياة البشر الاجتماعية من ناحية أخرى " كما تنوعت أنماط الدراسات التاريخية على نحو جعل من علم التاريخ ، الذي ينتمي إلى ماضى الإنسان الحضاري ، علماً يتصل بحاضر الإنسان ومستقبله من حيث الهدف .

هذه الرحلة الطويلة التي قطعتها المعرفة التاريخية ، منذ نشأت في رحم الأسطورة حتى تطورها العلمي المثير في العقود الأخيرة ، كان هدفها معرفة الإنسان في حياته الاجتماعية ، وفي إطار ثقافته . ولم يكن ممكناً أن تتطور المعرفة

(١) ب . ب . جريجوريان ، الفلسفة وفلسفة التاريخ ، ترجمة هيلم طه ، ومراجعة رضوان القضاة ، (دار القادسي ، بيروت ١٩٨٦م) ، ص ٥ .

التاريخية في جانب بعينه بعيدا عن بقية جوانبها . ومن ثم ، فإن فلسفة التاريخ التي تبحث في اتجاه حركة التاريخ ، والقوى الفاعلة في هذه الحركة ، ومضمون التاريخ ومغزاه ، كانت تتطور بشكل يوازي تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية بهدف تطوير كيفية الحصول على المعلومات ، وتحليلها ، وعرضها ، ثم محاولة كشف العلاقة السببية داخلها وصولا إلى استنتاجات قد تفيد في تحقيق الهدف النهائي من الدراسة التاريخية .

وفي الوقت نفسه كانت النقلة النوعية في مناهج البحث تواكبها نقلة كمية في التراكم المعرفي داخل علم التاريخ نفسه . وقد أدى هذا الوضع إلى فرض غمط من التخصص في الدراسات التاريخية بحيث انقسمت إلى فروع يهتم كل منها ببحث أنماط التطور الإنساني عبر التاريخ على مستوى بعينه ، فظهر التاريخ الاجتماعي ، والتاريخ الاقتصادي ، والتاريخ العسكري ، والتاريخ الفني ، والتاريخ الثقافي . . . وما إلى ذلك .

ومع هذه التطورات كان على المشتغلين بالدراسات التاريخية أن يطوروا مناهجهم وأدواتهم البحثية ، وكان كل تطور على هذا المستوى يدفع بالدراسة التاريخية إلى تطور جديد . وهكذا كانت مناهج البحث في الدراسات التاريخية في علاقة جدلية بعلم التاريخ نفسه ، ودخلت هذه الخطوات العقلية والاستدلالية التي اصطلاح على تسميتها بالمنهج في بنية العلم الأساسية ، ولم تكن مجرد ممارسة عقلية منفصلة عن علم التاريخ الذي حمل تجربة الإنسان الحضارية وقصته في الكون . والحاصل أن أركان المعرفة التاريخية جميعها قد خضعت لنوع من التفاعل الداخلي يحتم علينا محاولة تتبع الخطوط العامة لهذا التطور .

بيد أن هذه الدراسة سوف تركز اهتمامها على التراث الإسلامي من جهة ، والتراث الغربي من جهة أخرى . وفي تقديرنا أن الشرعية العلمية لهذه المحاولة تقوم على أساس توضيح إسهام الفكر العربي في تطور الدراسات التاريخية فضلا عن بيان دور الفكر التاريخي الأوربي الذي ما يزال يتولى ريادة الفكر التاريخي بعد أن وصل به إلى آفاقه الراهنة .^(٢)



منذ البداية حاول الإنسان التعرف على ماضيه لكي يفهم حاضره من ناحية ، ولكي يجد في هذا الماضي سنداً وديعاً لوجوده الآن في إطار الجماعة من ناحية أخرى . وإذا كان الإنسان قد لجأ إلى الأسطورة لتفسير اللغز المتعلق بوجوده في الكون ، ولتفسير الظواهر المحيطة به ، فإن محاولته هذه كانت هي الخطوة الأولى لبناء المعرفة العلمية سواء في مجال التاريخ أو غيره . فقد كانت الأسطورة ملاذ الإنسان حين كان العقل البشري ما يزال في طور طفولته الأولى . ويغض النظر عن التفسيرات المختلفة للأسطورة^(٣) ، فإن الأسطورة حاولت ترفيع النقص في ذاكرة الإنسان ، وفي

(٢) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع أنظر :

Barnes, H. E, History of Historical Writing, 2 nd ed, (dover, New york 1963).

أيضا : ألبان ج . ويدجري ، التاريخ وكيف يفسرونه - من كونفوشيوس إلى توبني ، ترجمة عبدالعزيز جاويد ، القاهرة ١٩٧٢م .

(٣) أنظر المناقشة الموجزة والمفيدة في هذا الموضوع عند :

فراس السواح ، مفارقة العقل الأولى - دراسة في الأسطورة : سورية وبلاد الرافدين : (دار سور ، نيقوسيا - قبرص ، ط . صادمة ١٩٨٦م) ، ص ١١ - ص ٢٣ .

معرفة عن الكون والأشياء . وقد ظهرت أساطير الخلق لتحاول الإجابة على الأسئلة المتعلقة بالخلق والتكوين وأصل الإنسان ، وعلاقته بالكون . وكانت هذه الأساطير هي المحاولة الأولى للحصول على إجابات يحتاجها الإنسان لتفسير وجوده وقصته في العالم .

وإذا كان البعض يصف الأسطورة بأنها (العلم البدائي) ، فإنه ينبغي علينا أن نشير إلى أن المعرفة التاريخية قد ولدت من رحم الأسطورة ، وتربت وترعرعت في حجرها . إذ أن أحداث القصص الأسطورية تدور حول أصول الأشياء ونهاياتها . وهنا نجد المجتمع الإنسان يلجأ إلى أساطيره للحصول على التفسيرات المطلوبة لمختلف الظواهر الغامضة ، سواء في الطبيعة ، أو في ماضي التطور الإنسان . ومن ثم فإن بذرة (التاريخ) التي زرعت في تربة الأسطورة أخذت تنمو بالتدريج وبشكل مطرد مع تزايد تحرر الكتابة التاريخية من الخيال والرمز الذي ميز « الكتابات التاريخية » الأولى . وإذا كان تصور التاريخ على أنه عِلْم تصور حديث نسبياً ، فإن التاريخ ، من حيث كونه سجلًا لنشاط البشر وسعيهم لبناء الحضارة ، قد بدأ مع بداية المجتمع الإنسان نفسه . ولا يقلل من أهمية هذه الحقيقة حقيقة أخرى مؤداها أن العنصر « الأسطورة » كانت أكثر من العناصر « التاريخية » في هذه الكتابات المبكرة .

لقد حاولت الأساطير الأولى أن تفسر ماصعب على الإنسان إدراكه في بداية رحلته الكونية . بيد أن الأسطورة ، من ناحية أخرى ، عجزت عن توضيح البعد الزمني والبعد المكاني في القصة التاريخية . فالزمن في الأسطورة متداخل دوماً وتحديد ، لأن بناءها يقوم على أساس أن الزمن لم ينته بل ما يزال مستمرا . ولذلك فإن الفكرة الأسطورية عن الزمان كيفية « مجسمة » ، لا كمية مجردة . فالفكر الأسطوري لا يعرف الزمن بوصفه تعاقبا للحظات زمنية متشابهة ، كما أن الإنسان الأول لم يعرف فكرة الزمن التي تشكل لنا إطار التاريخ^(٤) كذلك فإن علاقة الأسطورة بالمكان هي يعينها علاقة البناء الفني برموزه ، فالمكان رمز للأسطورة ولكنه ليس مسرحة حقيقيا لأحداثها التي تدور خارج حدود الزمان والمكان ولأن العملية التاريخية ثلاثية الأبعاد ، إذ أنها تقوم على العلاقة الجدلية بين الإنسان وبيئته . . . في إطار المكان ، فإن تطور المعرفة التاريخية كان يستوجب البحث داخل هذه المنظومة الثلاثية بحيث تحتم انفصال (التاريخ) عن (الأسطورة) في مرحلة لاحقة .

لقد أدخلت الأساطير مظاهر البيئة الطبيعية في نسج القصة التي تروى لمحاولة تفسير لغز الوجود الإنساني في الكون . ويرى بعض الباحثين أن أساطير العالم القديم ، التي تمثل « واحداً من أعمق منجزات الروح الإنسانية » كانت نتاجاً لتأملات كونية عميقة من جانب الإنسان . فهناك الكثير من الأساطير القديمة تتناول موضوعات مثل « حق ، ونظام الكون ، وشكل الإنسان ، وبناء الحضارة . »^(٥) ومن ناحية أخرى ، فإن عدداً كبيراً من الباحثين

(٤) حسان الألوسي - الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٠م ، ص ٣٩ - ص ٤٠ .

(٥) سمبول نوح كريبز - أساطير العالم القديم ، ترجمة أحمد عبدالحاميد يوسف - مراجعة عبدالمعزم أبو بكر - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص ٧ - ص ٨ .

يتفقون على أن الأسطورة تعبير عن وعى الجماعة الإنسانية بذاتها وإدراكها لهويتها ، كما أنها تعكس بناء الحياة الاجتماعية ، وعلاقة هذه الحياة بعالم الآلهة والقوى الغيبية ^(٦)

لقد ربطت الأساطير الكنعانية ، مثلاً بين ظروف البيئة من خصوبة أوجذب وبين صراع الإله بعل (رب الخصوبة والحياة) ، والإله موت (رب العقم والموت) . ^(٧) أما أساطير الخلق الهندية فتكشف عن رغبة الإنسان الطبيعية في الوصول إلى تفسير للغز الوجود الإنساني كيف وجد الكون ؟ وكيف يعمل ؟ ومن أين أتى الإنسان ؟ وما وظائف عناصر الطبيعة ، وعلاقتها ببعضها البعض ؟ وما سر القمر والشمس والرياح والعواصف ، والفيضانات والجفاف ؟ ^(٨) .

لقد اختلطت محاولات الإنسان الأولى لتسجيل تاريخه بالصياغات الأسطورية ، ولم يكن له أى دور واضح في الفعل التاريخي في هذه الصياغات الأسطورية . إذ اتسم التراث الإنساني الباكر في مجال الكتابة التاريخية بهذا الخلط المثير بين فعل الإنسان ومشية القوى الغيبية . وكانت الكتابات « التاريخية » الأولى تسجيلاً لأفعال ليست من قبيل الفعل الإنساني ، وإنما هي من أفعال الآلهة . ولم يكن البشر في هذه (التواريخ) الباكرا يمثلون عنصراً من عناصر القوة والنشاط والفعل ، ولكنهم كانوا وسيلة هذا النشاط وأدواته المسخرة بأيدي الآلهة ^(٩) . وهكذا كانت التسجيلات « التاريخية » الباكرا عبارة عن تواريخ حكومات الآلهة ، أو أشباه الآلهة . ولم يكن التاريخ قد نزل بعد من عليائه ليسجل قصة الإنسان في الكون وسعيه لبناء الحضارة . وهنا نجد الأسطورة تحكم التاريخ ، فالأسطورة حكاية مقدسة تلعب أدوارها الآلهة وأشياء الآلهة .

وبطبيعة الحال ، فقد نزلت الأسطورة من سماء الآلهة إلى عالم الإنسان ، وبدأت ترصد تاريخه وتسجله وفق شروطها وفي إطار رموزها وقد اختلف الباحثون حول هذا الأمر ، إذ يذهب البعض إلى أن الأساطير « تسجيل تاريخي » للأحداث الجارية عبر ماضي الجماعات الإنسانية والشعوب ، على حين يذهب البعض الآخر إلى القول إن الأسطورة تمثل تاريخاً قديماً متوارثاً بين الأجيال المتعاقبة التي تناقلته بالتلقين الشفاهي ، ونادراً ما تأخذ الأسطورة أشكالاً أو نماذج محددة ، بل إنها غالباً ماتتطوى على عناصر يترج فيها الخيال بالخرافة . . . ^(١٠)

وفي رأينا أن الأسطورة لا تحمل التاريخ كله ، وإنما تحمل « نواة تاريخية » ، وغالباً ما تكون الصياغات الأسطورية لهذه « النواة التاريخية » عملة بتراكبات تعبر عن وجدان الجماعة التي أنتجها ، كما أنها - في الوقت نفسه - تعبير عن الذات والهوية وتحمل تصوراً نفسياً تعويضياً لصالح الجماعة من كونها تجسيدا للواقع « التاريخي » .

(٦) قيس النوري ، الأساطير وعلم الأجناس ، (بغداد ١٩٨١م) ص ١٠ - ص ١١ .

(٧) صمويل نوح كرمي ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ وما بعده .

(٨) نفسه ، ص ٣٨٤ - ص ٣٨٥ .

(٩) روبين جورج كولنجود ، فكرة التاريخ ، ترجمة محمد بك ، ل . ، مراجعة محمد عبدالواحد خلاف (لجنة التأليف والنشر والترجمة ، القاهرة ١٩٦٨م) ، ص ١١ .

ص ٥٢ .

(١٠) قيس النوري ، المرجع السابق ، ص ١٩ .

ولا يعني هذا أن الأسطورة نتاج للخيال المجرد ، وإنما هي ترجمة للملاحظات واقعية ورصد لحوادث جارية ولكن في إطار فني يخدم الأهداف الثقافية الاجتماعية التي يحتاج المجتمع لتحقيقها من خلال أساطيره . وعن طريق الأساطير ، ومن خلالها ، عرفنا ما عرفناه عن تجارب الأولين وخبراتهم المباشرة التي تعود إلى أزمان سحيقة تسبق « التاريخ المكتوب » . ومن هنا يمكن القول بأن الأساطير « نظام فكري متكامل ، استوعب قلق الإنسان الوجودي ، وتوقه الأبدى لكشف الغوامض التي يطرحها محيطه »^(١١)

ومن يبحث في الأسطورة سوف يجد مادة تاريخية ثرية تشكل بناءها ؛ ففي رأى فريق من الباحثين أن أساطير الطوفان ، أو الدمار بالنار السماوية ، أو الأعاصير ، التي تتسم بالشمولية وتكرر لدى معظم الشعوب ، دلالة على تجارب وخبرات عاناها الجنس البشري في مطلع حياته .^(١٢) ومن المهم أن نلاحظ أن هذه الأساطير التي تتعلق بالتكوين وفصل السماء عن الأرض قد سربت بعض تفاصيلها في الكتابات التاريخية اللاحقة على نحو يكشف عن تأثير الأسطورة المتوارث في منطقة الشرق العربي ، ولاسيما أساطير التكوين السومرية .^(١٣)

وإذا ما أخذنا ما كتبه العبرانيون أنفسهم باعتباره تاريخاً ، فإننا سنجد أن العناصر الأسطورية والغيبية تمثل لحمة الكتابات العبرية « التاريخية » وسداها . بيد أن التراث العبراني ، من ناحية أخرى ، يمثل مرحلة أبعد سارها الفكر التاريخي حين اختلط بالفكر الديني .

ومن الممكن أن نتتبع ظهور العبرانيين في المنطقة من خلال نصوص سفر التكوين التي تدلنا على ثلاث موجات من هجرات العبرانيين ، الأولى هجرة إبراهيم (عليه السلام) ، وهو الجد الأعلى ، من مدينة « أور » الكلدانية في بلاد النهرين إلى أرض كنعان في فلسطين حيث استقر به المقام .^(١٤) أما الهجرة الثانية فيقودها يعقوب بن اسحق ، حفيد إبراهيم (وهو نفسه إسرائيل) . ويتحدث سفر التكوين عن عهد يجده الرب مع يعقوب^(١٥) . والهجرة الثالثة تقوم بها جموع اليهود الفارين من مصر بقيادة موسى (عليه السلام) ، وربما تكون قد حدثت في أو آخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد^(١٦) .

هذه النصوص التوراتية التي نتحدث عن موضوعات تاريخية تعتبر من أقدم الكتابات (التاريخية) . وإذا كانت الأسطورة قد سبقت (الكتابات التاريخية الدينية) ، فإن تأثير الأسطورة لم يختف وإن خفت حدته . ويحتل سفر الملوك في التوراة اليهودية مكانة خاصة في تاريخ الفكر التاريخي بفضل ما يتضمنه من مادة تاريخية غزيرة .

(١١) فراس السواح ، مغامرة العقل الأولي ، ص ٢١ .

(١٢) نفسه ، ص ١٦ .

(١٣) نفسه ، ص ٢٣ - ٥٠ .

(١٤) جاء في سفر التكوين (١٣ : ١ - ٢) ما نصه : (وقال الرب لإبراهيم ، اذهب من أرضك ومن عشيرتك إلى بيت أبيك ، إلى الأرض التي أربك ، فأجعلك أمة عظيمة وباركك وأعظم اسمك) .

(١٥) يقول نص سفر التكوين (٣٥ : ١٣) (والأرض التي أعطيت إبراهيم واسحق لك أعطيها ولنسلك من بعدك أعطى الأرض) .

(١٦) فراس السواح ، مغامرة العقل الأولي ، ص ١١٩ - ص ١٢٠ .

ومن ناحية أخرى ، فإن التسجيلات العبرانية الأولى قد سارت شوطا بالتاريخ نحو توضيح الدور الإنساني فيه ، وتقليل تدخل الآلهة والقوى الغيبية في شئون البشر . بيد أن اعتقاد اليهود بأنهم (شعب الله المختار) جعلهم يسجلون في أسفارهم أخبارا عن فعال الله من أجلهم وتدخله في توجيه حركة التاريخ لصالحهم .

ولأن فكرة التاريخ لدى العبرانيين تتمحور حول فلسفة غائية هدفها طمأنة اليهود بوعدهم بالأمل في المستقبل ، ولأن فكرة التاريخ العبرانية تدور حول بنى إسرائيل أولا ، ثم البشرية كلها بعد ذلك ، فإن كتابة التاريخ في التراث العبراني طورت منهجا يسعى إلى رسم الصورة المثالية لمسيرة التاريخ العالمي بحيث يتوافق مع فلسفة التاريخ العبرانية الغائية . وقد أدى هذا إلى صارت كتابة التاريخ في التراث العبراني لاستهداف الحقيقة التاريخية ، وإنما تستهدف صياغة الرواية التاريخية وفق النموذج اليهودي وفي إطار فلسفة التاريخ اليهودية التي تؤكد أن الرب سوف يتدخل في النهاية لصالح شعبه المختار .

وهناك من الباحثين من يرى أن اليهودية ديانة تطورت بفضل الميراث الثقافي للمنطقة . وربما تكون ديانة أتون التوحيدية في مصر القديمة قد أعطت اليهودية دفعتها الأولى^(١٧) ، ثم أخذت بعد ذلك تتطور بفعل المؤثرات الثقافية السائدة في المنطقة السامية . ويبدو ذلك واضحا من خلال الحقيقة القائلة بأن أسفار التوراة ، وهي الكتب الخمسة المنسوبة إلى موسى ، عليه السلام ، قد كتبت على مدى ثلاثة قرون . أما آخر أسفار العهد القديم ، وهو سفر المكابيين الأول وسفر المكابيين الثاني ، فقد تم تدوينه خلال القرن الأول قبل الميلاد .

ومن الواضح أن محتوى الكتب التاريخية اليهودية في التوراة ، والمنهج الذي تعرض به أحداث التاريخ في طيات هذه الأسفار ، يهدف إلى شيء آخر غير مجرد رواية الحوادث التاريخية ، أو تحليلها ، أو البحث عن الحقيقة التاريخية المجردة وراءها . وإنما يهدف إلى محاولة تفسيرها في إطار منظور مستقبل غائي يحدد الهدف الديني .

فتاريخ بنى إسرائيل ، كما تصوره صفحات التوراة ، وكما هو في الواقع التاريخي ، ملء بالحروب والدماء والمصائب . وعلى الرغم من أنه يمكن تفسير ذلك في ضوء أخطاء اليهود أنفسهم فإن كتاب الأسفار اليهودية وضعوا التاريخ في إطار يفسر تفسيراً يخدم الغايات الدينية اليهودية^(١٨) . لقد حاول كتاب سفر الرؤيا اليهود أن يثبوا الطمأنينة في نفوس أبناء دينهم ، وأن يلوحوا لهم بالأمل وسط دياجير الظلام واليأس . وكان طبيعيا أن يقدموا لليهود الوعد بالنجاح في المستقبل حين يتدخل الرب لإنقاذ شعبه المختار . ولما كان ماضى اليهود وحاضرهم ومستقبلهم يمثل قصة وجودهم في العالم ، فقد حاول مفسرو سفر الرؤيا^(١٩) وضع تقسيم زمني لتاريخ العالم يخدم الهدف الذي يسعون إليه ، وهو ربط أنظار اليهود بما سوف يحدث مستقبلا .^(٢٠)

(١٧) كان اليهود يعيشون في مصر عبدة الأوثان ، ثم فروا منها بقيادة موسى عليه السلام - وقد فر موسى بقومه من مصر بعد أن كانوا تحت نير العبودية . أنظر .

فراس السواح ، مغامرة العقل الأولى ، ص ١٢١ - ص ١٢٩ .

(١٨) ويدجري ، التاريخ وكيف يفسرونه ، ص ١٢٠ .

(١٩) أنظر تفسير حلم (توبخذ نصر) في سفر دانيال (٢ - ٣١ - ٤٥) . وأنظر أيضا تفاصيل حلم دانيال : سفر الرؤيا ، الإصحاح السابع .

(٢٠) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية للتاريخ - قراءة في التراث التاريخي العربي ، (ط ١ : ثانية دار المعارف ١٩٨٥م) ص ٣٢ - ص ٣٣ .

هكذا كانت فكرة التاريخ لدى العبرانيين تتمحور حول فلسفة تاريخ غائية تفسح مجالاً واسعاً لدور الرب في توجيه أحداث التاريخ . وقد أدى هذا ، بالضرورة ، إلى تخلف منهج البحث التاريخي ؛ لأن « الحقيقة التاريخية » لم تكن هدف هذا النمط من الكتابة . والمادة التاريخية في أسفار العهد القديم لاتقدم الحدث التاريخي في إطاره الوضعي ، وإنما تصوغه في القالب الذي ينبغي أن يتقبل فيه لكي يتسق مع الغايات الدينية التي حكمت كتابة تاريخ اليهود وقصتهم في العالم .

ويرى بعض الباحثين أن الكتابات التاريخية في التوراة تحدد بداية ظهور القصص التاريخي الحقيقي في تاريخ كتابة التاريخ ، وأن « سفر الملوك » يمثل فكرة التاريخ لدى العبرانيين خير تمثيل ، فكانت هذا السفر يهدف إلى إقناع اليهود بأن الإخلاص الديني له قيمته ، وذلك عن طريق وضع أمثلة تاريخية على المصائب التي حلت بهم عندما تخلفوا عن دينهم ^(٢١) . وفي رأينا إن الكتابة التاريخية بدأت في شكلها الجنيني داخل الأسطورة ، وقد سربت أساطير الخلق والتكوين والأصول التي انتشرت في المنطقة السامية قديماً كثيراً من عناصرها إلى التوراة التي ينسبها اليهود إلى موسى (عليه السلام) ^(٢٢) وقد أضاف إليها الأخبار اليهود ما يخدم فكرة أن اليهود « شعب الله المختار » ، وفكرة الوعد بالأرض المقدسة والإخلاص في المستقبل .

ويهمنا في الدراسة أن نؤكد على أن « العهد القديم » قد استوعب فكرة التاريخ بمضامينها السائدة في المنطقة السامية منذ القدم ؛ وهو ما يعني أن التراث الأسطوري الذي حكم فكرة التاريخ عند السومريين والبابليين والكنعانيين والمصريين القدماء قد اتخذ شكلاً دينياً غائياً في فكرة التاريخ العبرانية . فالنظرة اليهودية إلى التاريخ ترى فيه تاريخ بني إسرائيل أولاً ، ثم تاريخ البشرية بعد ذلك . ويعتقد عامة اليهود أن هدف التاريخ هو تشييد مملكة المخلص الذي سيأتي في آخر الزمان ليقيم مملكة الرب في أرض الميعاد . وقد فسر آخبارهم كل الأحداث التاريخية التي مرت عليهم ، أو مروا بها ، تفسيراً تعويضياً يناسب هذه الفكرة . وهكذا لم يكن هدف « التاريخ » البحث عن الحقيقة ؛ وإنما صياغة الحدث في إطار يناسب الهدف من كتابة التاريخ . وقد كان لهذا الموقف من التاريخ أثره بطبيعة الحال على مناهج البحث التي حاولت حل المشكلات التي تقف في سبيل تحقيق هذا الهدف . وفي تلك المرحلة كانت مناهج البحث موازية في تطورها للعلم الذي كرس لخدمته وبقدر ما بعدت الكتابة التاريخية العبرانية عن التاريخ بالمفهوم العلمي الحديث ، بقدر ما كانت مناهج البحث بعيدة عن أن تكون وسائل عقلية استدلالية لبناء العلم التاريخي وحل مشكلاته .

هكذا ، إذن ، نصل إلى أن فكرة التاريخ في المنطقة السامية القديمة (المنطقة العربية الآن) قبل ظهور الإسلام كانت مزيجاً من الفكر الأسطوري والفكر الديني الذي وضع التاريخ ، بأحداثه ووقائعه ، داخل نطاق فلسفة غائية تهدف إلى صياغة أحداث التاريخ لخدمة أهداف أخرى غير البحث عن الحقيقة ، أو رصد العلاقة السببية في الظاهرة

(٢١) H. E. Barnes, A history of historical Writing, (2nd ed., New York, 1963), PP. 19 — 20

(٢٢) انظر المقارنة القديمة بين أساطير التكوين في المنطقة السامية و« سفر التكوين » في التوراة - غراس السواح ، مقالة العقل الأول ، ص ٢٣ - ١٤٠

التاريخية وفي ظل هذه الظروف اختلفت الحقائق التاريخية بالتصورات الأسطورية والغيبية ، وبقي التاريخ عملية يشارك البشر في صنعها وتتولى الآلهة توجيه مجراها . ولم يكن ممكناً في ظل هذه الظروف الفكرية أن تتطور مناهج البحث التاريخي إلى آفاق جديدة تخطوها نحو تحويل التاريخ إلى « علم » بالمعنى البسيط الذي يهدف إلى كشف « غير المعلوم » وكان هذا ، بشكل عام ، هو إطار فكرة التاريخ في المنطقة بعد ظهور الإسلام الذي بدأت معه مرحلة جديدة من التطور كان للدراسات التاريخية ومناهج البحث نصيبها منه .



قبل الخوض في الحديث عن تطور مناهج البحث والفكر التاريخي في إطار الحضارة العربية الإسلامية ينبغي أن نطرح عدداً من الأسئلة حول المعرفة التاريخية عند العرب قبل الإسلام يدخل في نسيج تراث المعرفة التاريخية للمنطقة كلها ؛ فإن هذه التساؤلات تكتسب شرعيتها من التراث العربي قبل الإسلام كانت من روافد الفكر التاريخي العربي بعد الإسلام .

الثابت أنه كانت للعرب قبل الإسلام أساطيرهم التي كان بعضها بمثابة الشكل الجنيني للمعرفة التاريخية في فترة لاحقة من تاريخهم . وقد راودت العرب البدائيين الأسئلة نفسها التي راودت غيرهم من الشعوب في طور بدائي من رحلتهم عبر الزمان عن حقيقة لغز الوجود الإنساني في الكون . ويرى أحد الباحثين أن دراسة الأساطير العربية قبل الإسلام « هي دراسة كل ما سُطر عند الجاهليين ، تاريخاً كان أو ديناً ، لأن الأسطورة هي صورة من صور الفكر البدائي حيثما كانت مسطورة أو مطبوعة في ألواح الأذهان »^(٢٢) ولقد كانت البيئة الطبيعية التي أثرت في التراث الأسطوري العربي هي التي أثرت على نمط المعرفة التاريخية لدى العرب بعد ذلك^(٢٣) .

لقد كان التراث الأسطوري العربي جزءاً من التراث الأسطوري العام في المنطقة بطبيعة الحال . ومن ناحية أخرى ، كان لابد للمعرفة التاريخية لدى العرب قبل الإسلام أن تتخذ شكلاً يوافق الحقائق والظروف البيئية ، ويتسق مع درجة التطور الثقافي في ذلك الحين ، كما كان من الضروري أن تصاغ فكرة التاريخ في أنماط تلبي الحاجات الثقافية / الاجتماعية . لقد كان الفكر التاريخي العربي قبل ظهور الإسلام يسير في مسارين أساسيين : الأنساب ، وأيام العرب ، فضلاً عن القصص التاريخي أو شبه التاريخي الذي تناقله عرب الجنوب . ومن ثم ، فإن نمط المعرفة التاريخية ، وهدف هذه المعرفة قد حدداً المنهج الذي استخدمته هذه الأنماط الباكورة من تراث الفكر التاريخي العربي .

ومن المهم أن نشير إلى أن التاريخ في التراث العربي قبل الإسلام قد كان شأنًا بشرياً لادخل للآلهة فيه ، ولكن الخيال لعب دوراً أساسياً في الرواية التاريخية ، كما أن « الصورة المثل » للقبيلة حلت محل « الحقيقة التاريخية » في كثير من الأحيان .

(٢٢) محمد عبد المعيد خان ، الأساطير والحرفات عند العرب ، (ط ٢ ، ١٩٨١م) ، بيروت ، دار الحديث ، ص ٢٠ - ٢٢ .

(٢٣) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص ٦٣ - ٦٥ .

وإذا كان نوع المعرفة التاريخية وموضوعها وهدفها يحدد منهج البحث التاريخي ؛ فإن الحياة القبلية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام قد فرضت أنماطاً بعينها من أنماط المعرفة التاريخية كان منهجها يسعى إلى صياغة صورة مثالية تخدم الذات القبلية وتحقق أمانها بغض النظر عن الحقيقة التاريخية .

وقد استخدم العرب قبل الإسلام (الأنساب) باعتبارها نمطاً من المعرفة التاريخية تناسب ظروف التنظيم القبلي . فقد حرصت كل قبيلة - باعتبارها الوحدة الأساسية على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأمني - على حفظ أنسابها حتى لا تختلط بأنساب غيرها من القبائل ، ولكي تكون وسيلتها في التناصر على أعدائها ، والتفاخر بأبائها وأجدادها . وقد أشار كل من النويري والقلقشندي إلى اهتمام العرب بالأنساب وتفاخرهم بها ^(٢٥) ، وكان لكل قبيلة نسائها المشهورون الذين حفظوا شجرات النسب عن ظهر قلب نظراً لأهمية النسب في حياة القبيلة ^(٢٦) . والتقسيم على أساس النسب في المجتمع القبلي هو التقسيم الوحيد الممكن فقد أفرز المجتمع القبلي هذا التقسيم النسبي على مستوى التنظيم الاجتماعي ، كما أفرز نمطاً من أنماط المعرفة التاريخية يناسب هذا التقسيم الاجتماعي تمثل في « أنساب العرب » . وعلى الرغم من أن الأنساب كانت نمطاً من أنماط المعرفة التاريخية يخدم الحاجات الاجتماعية / الثقافية للمجتمع القبلي ، فإن هذا النمط نفسه كان يخلو عادة من الإشارة إلى الأحداث التاريخية التي لم تكن هدفاً للأنساب أو موضوعاً لها .

أما النمط الثاني من أنماط المعرفة التاريخية عند العرب قبل الإسلام ، فقد تمثل في « أيام العرب » التي كانت تتضمن أخبار الحروب والمعارك التي خاضتها كل قبيلة . ولأن التنظيم القبلي كان يمثل الشكل السائد للتنظيم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ؛ فإن « أيام العرب » كانت بمثابة السجل الذي يحوى مفاخر القبيلة ، ويسجل أيامها وانتصاراتها المجيدة ، كما يحفظ بطولات أبنائها ^(٢٧) . وكان رواة العرب يتداولون هذه « الأيام » في قالب شعري خالص أحياناً ، وفي قالب نثري تتخلله الأشعار أحياناً أخرى . وقد كان منهج رواة « أيام العرب » متوافقاً مع الموضوع ومع الهدف الثقافي الاجتماعي لهذا النمط من أنماط المعرفة التاريخية . فقد حرص أولئك الرواة على رسم صورة مثالية للذات القبلية .

ولم يكن رواة « أيام العرب » يبحثون عن الحقيقة التاريخية ، وإنما كانوا يتحدثون عن مآثر أسلافهم ، وبطولات قبيلتهم ، وفقاً لتصورهم أو أمانيتهم . ولم يكن هناك ما يقيدهم سوى الرغبة في إمتاع السامعين ، ودغدغة

(٢٥) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، ج ٢ ، ص ٢٦١ ، القلقشندي ، صبح الأعشي في صناعة الانشا ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ - ص ٣٠٩ .

(٢٦) تندر صلة النساين بالشعر الجاهلي واضحة جلية ، إذ أننا نجد دائماً أن ذكر علماء النسب يجيء مقروناً بالشعر ورواياته ، ويرتبط أيضاً بأيام العرب وأخبارهم - انظر : ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي وقبعتها التاريخية (ط - خاتمة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨م) ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢٧) عن أيام العرب ، موضوعاتها ، وأعدادها ، ومحاولات جمعها ، انظر : القلقشندي ، صبح الأعشي ، ج ١ ، ص ٣٩٠ - ٣٩٥ ، السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٣٧٤ - ٣٧٦ ، محمود شكوي الألوسي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (القاهرة ١٩٧٤م) ، ج ٣ ، ص ٦٨ ، قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص ٦٨ - ٧١ .

وقد جمع اثنان من الباحثين أربعة وثلاثين (يوماً) من أيام العرب انظر : محمد أحمد جاد الملوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة ١٩٤٢م) .

مشاعر الزهو والفخر في نفوسهم . وعلى الرغم من المسحة الخيالية التي تغلف « أيام العرب » فلاشك أن هذه الروايات « التاريخية الملحمية » قد نسجت حول نواة من الأحداث التاريخية حقا ؛ فهي تكشف عن صلات العرب بغيرهم من الأمم قبل الإسلام ، كما تكشف عن المشاكل والخلافات التي ميزت حياة قبائل العرب في تلك الفترة من تاريخهم .

وإذا كانت « الأنساب » وسيلة القبيلة في البحث عن هويتها ، وتأكيد ذاتها من خلال شجرة النسب ، فإن « أيام العرب » كانت بمثابة الأداة لتأكيد هذه الذات والهوية وتدعيم وجودها الحاضر من خلال ماضيها الخافل بالمآثر والبطولات .

وفكرة التاريخ عند أية جماعة إنسانية ليست في حقيقة أمرها سوى شكل من أشكال فهم هذه الجماعة لهويتها الذاتية . ومن خلال إدراك الجماعة الإنسانية لذاتها تتحدد أبعاد فكرة التاريخ . وإذا رجعنا إلى تراث العرب قبل الإسلام في مجال الفكر التاريخي لاكتشفنا على الفور أنهم لم يتصوروا أنفسهم أمة واحدة يجمعها تراث تاريخي واحد ، وقد انعكس ذلك على شجرات النسب التي اهتمت بالنسب الجزئي لكل قبيلة على حدة . وإذا كان العرب قد رجعوا في أصولهم العليا إلى جد أعلى يتسبون له جميعا ، فإن الأسطورة قد تركت بصماتها على هذه المحاولات من ناحية ، كما أن تراثهم قد خلا من أية مادة تاريخية تكشف عن تصورهم لذات كلية تجمعهم سويا من ناحية أخرى .

لقد افترقت « أيام العرب » إلى معظم مقومات العلم التاريخي بمفهومنا المعاصر ، بيد أنها كانت نتاجا حقيقيا وإفرازاً للظروف التاريخية آنذاك ، كما كانت متوافقة مع النظرة القبلية الجزئية التي جعلت من القبيلة عالماً قائماً بذاته في مواجهة القبائل الأخرى^(٢٨) . لقد ارتبطت قصص الأيام بفكرة « البطولة » أكثر من ارتباطها بفكرة التاريخ ؛ ولذلك لم يكن منهج الرواية يسعى للبحث عن الحقيقة التاريخية ، وإنما كان يسعى إلى صياغة الصورة المثالية لبطل القبيلة ، أو أبطالها ، وبالشكل الذي يحقق إشباع مشاعر الفخر ونوازع الكبرياء في أبناء القبيلة الذين كانت عيونهم وأذانهم تتعلق بالرواية في سمر الليل بين مضارب خيام القبائل . لقد كانت كل قبيلة تحاول تثبيت ذاتها في مواجهة القبائل الأخرى .

من ناحية أخرى ، كان الوعي التاريخي لدى عرب الجنوب متوافقا مع ظروفهم التاريخية الموضوعية ودرجة غوهم الحضاري من جهة ، ومختلفا عن الوعي التاريخي لدى عرب الشمال من جهة ثانية .

فقد كانت بلاد اليمن مركز حضارة قديمة استقرت دعائمها أمداً طويلاً ، وحفظت النقوش المعينية والسبئية والحميرية آثارها^(٢٩) ، وقد انعكست هذه الحقيقة في تراث تاريخي اختلفت عن تراث عرب الشمال من حيث الشكل والمضمون والهدف أيضا . وكل ما وصلنا في هذا الصدد تراث تاريخي شفوي تداوله الرواة جيلا بعد جيل . وفي

(٢٨) حنت الشرقاوي ، أدب التاريخ عند العرب ، (القاهرة ١٩٧٦ م) ، ج ١ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢٩) السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ١ ، ص ٨٥ - ١٦٥ .

طيات هذا التراث تترد أسماء بعض ملوك اليمن القدماء ، وتظهر أحداث قصص تاريخية غامضة طابعها التهويل والمبالغة تتصاعد منها أصداء أحداث تاريخية توارت خلف ضبابية الغموض^(٣٠) . وإذا كانت الأحداث التاريخية قد توارت خلف الملامح الغامضة للمبالغة والتهويل في التراث التاريخي الشفوي لدى عرب الجنوب ، فإن هذه خاصية من خصائص المأثورات الشفهية تأتيها من خلال تراكم الروايات الشفهية التي تشبه تراكم الطبقات الجيولوجية فوق الحدث الأصلي ، بيد أن هذا لا يحول دون الانتفاع بهذه المادة التاريخية ، ورصدها مرحلة من مراحل تطور الفكر التاريخي ومناهج البحث في الدراسات التاريخية كذلك^(٣١) .

وإلى جانب هذا التراث التاريخي الشفوي لدى عرب الجنوب وجد علماء الآثار بعض النقوش التاريخية التي دون فيها الملوك حروبهم وأعمالهم ، وقد دونت على النحاس والحجر . وربما أهلك الزمان تدوينات « تاريخية » أخرى على مواد أقل صلابة وصموداً فتحللت وضاعت عبر القرون . وقد أشار المحدثان مؤلف كتاب « صفة جزيرة العرب » إلى هذه النصوص التاريخية ، كما أشار إليها نشوان الحميري الذي ألف معجماً لغوياً^(٣٢) ، وكانت هذه النقوش تتضمن بعض المادة التاريخية المتعلقة بأسماء الآلهة ، أو أنواع القرابين أو أسماء القبائل والأفراد ، كما تضمنت بعض المعلومات عن القوانين التي كانت تحكم علاقات الناس آنذاك^(٣٣) . وفي تصوراتنا أن هذه النقوش تحمل دلالة لا يخطئها الباحث على وجود وعي تاريخي يناسب درجة التطور الحضاري لعرب الجنوب ، إذ أن الشعور بالأهمية التاريخية للإنجازات السياسية والإدارية يدل على وجود نمط مناسب من أنماط الوعي التاريخي بمقاييس تلك العصور .

وفي تقديرنا أن القصص ذات الطابع التاريخي ، التي كان القصاصون الجوالون يروونها عن ملوك العرب الجنوبيين ، وبطولاتهم وأعمالهم ، وهي القصص التي تناقلها الإخباريون في صدر الإسلام ، تعبر عن مدى وعي عرب الجنوب بفكرة التاريخ هذه القصص التي كان الخيال يغلفها كانت الأشعار تدخل في تسيجها بدرجة كبيرة . وكان الرواة يستمدون قصصهم من الأساطير والخرافات التي دخلت ضمن تراث المنطقة تارة ، ومن الأخبار والأحاديث الخرافية المأثورة عن العرب أنفسهم وعمّن جاوورهم تارة أخرى^(٣٤) .

لم تكن هذه القصص تعتمد على توقيت زمني يربط بينها ، مما يدل على أن الوعي بالزمن باعتباره قاعدة للحدث التاريخي ، كان بعيداً عن هذا النمط من الكتابة « التاريخية » في تلك العصور^(٣٥) ، إذ أن هذه القصص

(٣٠) حاملون جب ، علم التاريخ ، (كتب دائرة المعارف الإسلامية ، بيروت ١٩٨١) ص ٤٧ .

(٣١) يان لانسيتا ، المأثورات الشفهية ، ترجمة وتقديم د . أحمد موسى ، (القاهرة ١٩٨١ م) ص ٨٦ - ص ٨٨ .

(٣٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة د . عبدالحليم النجار (طبعة دار المعارف) ج ١ ، ص ٦٣ .

(٣٣) السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ١ ، ص ١٣ .

(٣٤) أصطلح العرب على تسمية مثل هذه الخرافات باسم (أوابد العرب) . وقد ذكر القلقشندي (صحيح الأضنى ، ج ١ ، ص ٣٩٨) ما نصه : « وهي أمور كانت العرب عليها في الجاهلية ، بعضها يجري مجرى الديانات ، وبعضها يجري مجرى الاصطلاحات والمعادن وبعضها يجري مجرى الخرافات . وقد جاء الإسلام بإبطالها » .

(٣٥) قاسم عبد قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص ٧٦ - ص ٧٨ .

ذات الطابع الملحمي لم تكن تهدف إلى البحث في المجرى التاريخي العام عن الحقائق التاريخية ، وإنما كانت نوعاً من قصص البطولة الملحمية التي تختلط فيها حقائق التاريخ بالخيال المعبر عن رؤية عرب الجنوب ووعيهم بالتاريخ .

ولم يكن هذا النمط من القصص التاريخي يتعلق بالقبيلة ، وإنما بالملكية . وإذا حاولنا استقراء تواريخ الكيانات السياسية التي شهدتها بلاد العرب الجنوبية (أي معين وسبأ وحمر ، ١٣٠٠-٥٢٧ ق . م) ، لأدرنا مدى هامشية الدور الذي لعبته القبيلة في نشأة هذه الكيانات . فقد كانت الملكية الوراثية هي نظام الحكم السائد ، وشكل النظام السياسي ، وغط التنظيم الاجتماعي . ومن ناحية أخرى ، فإن تراكم الثروة التي جلبتها تجارة العبور أدت إلى القيام بمشروعات زراعية كبرى مثل سد مأرب . وظلت بلاد العرب الجنوبية تقوم بدورها الهام في نقل التجارة العالمية طوال عهود معين وقتبان وسبأ وحمر^(٣٦) . وقد أدى هذا الوضع السياسي والاقتصادي في جنوب شبه الجزيرة العربية إلى وجود وعي تاريخي أكثر شمولاً ورحابة من الوعي الجزئي الذي نجم عن الظروف التي فرضتها التقسيمات القبلية الحادة في نجد والحجاز .

لقد عرف الجنوب نظماً سياسية واجتماعية متقدمة نسبياً عن تلك التي عرفها عرب الشمال ، كما أنهم خضعوا لنمط من الحكم الملكي فترة طويلة من تاريخهم ، ومن ثم اتخذت الكتابة التاريخية أشكالاً تناسب الظروف الموضوعية ، فاهتمت الروايات التاريخية بقصص الملوك وبطولاتهم وحروبهم . وهو أمر طبيعي في زمن كان فيه التاريخ ريب القصور الحاكمة . كما نجد في صفحات الكتب التاريخية اليمنية تداخلاً بين الدين والسياسة . ومن ناحية أخرى ، فإن وعي الجنوب بفكرة التاريخ لم ينحصر في إطار البيئة اليمنية فحسب ، وإنما تعداها إلى آفاق العالم الخارجي وهو ما يعني أن دور عرب الجنوب في التجارة العالمية آنذاك كانت له انعكاساته على الفكر التاريخي . وتؤكد هذه الحقيقة من خلال ما بقى لنا من تراث عرب الجنوب في مجال الكتابة التاريخية مثل كتاب « التيجان في ملوك حمير »^(٣٧) .

ويبدو منهج البحث التاريخي متغيراً في خطواته الأولى في هذا الكتاب إذ تختلط فيه الحقيقة التاريخية بالخرافة والأسطورة على نحو مربك وحير . ويبدأ هذا الكتاب بالحديث عن الخلق ويتناول بداية الصراع الإنساني حين قتل قابيل أخاه هابيل^(٣٨) . ثم يشرع بعد ذلك في الحديث عن نسب حام بن نوح ونسله ، إلى أن ينتقل إلى الحديث عن ملك حمير^(٣٩) ، فيخلط التاريخ بالأسطورة حين يقول : « ولى حمير بن سبأ ، فجمع الجيوش ، وسار بظأ الأمم ويدوس الأرضين ، وأمعن في المشرق حتى أبعد يأجوج إلى مطلع الشمس » ثم يمضي في حكاياته التي تجمع بين التاريخ والخيال حتى يصل إلى سيف بن ذي يزن^(٤٠) . ويتأكد هذا الاتجاه من خلال الأخبار التاريخية التي تحوى

(٣٦) محمود اسباهيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي - محاولة نظير (الدار البيضاء ، ١٩٨٠م) ، ج ١ ، ص ٢٧ - ص ٤٠ .

(٣٧) قام مركز الدراسات والأبحاث اليمنية في صنعاء بنشر هذا الكتاب سنة ١٣٤٧ هـ .

(٣٨) التيجان ، ص ٩ - ص ٢٢ .

(٣٩) نفسه ، ص ٦٠ - ص ٦٤ .

(٤٠) نفسه ، ص ٣١٧ - ص ٣٢١ .

قصص عرب الجنوب ، وقد نشرت هذه الأخبار تحت عنوان « أخبار عبيد بن شربة الجهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها على الوفاء والكمال »^(٤١)

وقد ظل هذا التراث « التاريخي » لعرب الجنوب على السنة الرواة الذين تناقلوه عن طريق الرواية الشفوية على مدى عدة أجيال وبحكم طبيعة المأثورات الشفاهية تألفت الأخبار التاريخية التي اختلطت بالخيال ، والتي زعم روايتها أنها تاريخ واف لبلاد العرب في العصور القديمة ، واقتربت بهذه الأخبار التي جمعت بين الخيال والتاريخ أسماء رجال من طراز « وهب بن منبه » ، « وعبيد بن شربة » ويرى أحد المستشرقين أن هذا التراث دليل دافع « على أن العرب الأقدمين كانت تنقصهم الملكة التاريخية والنفوذ إلى الحقائق ، حتى في أخص ما يتعلق بحدوث عصرهم »^(٤٢) .

وفي رأينا أن (السير هاملتون جب) يقسو في تقويم هذا النمط من أنماط الكتابة التاريخية بمقاييس البحث التاريخي الحديث ومناهجه . ففي هذه المرحلة من التطور الحضاري لعرب الجنوب كان هدف « التاريخ » إبراز البطولة على حساب التاريخ كما سبق القول . وقد أثر هذا الاتجاه ، بطبيعة الحال ، على منهج الرواة الذين كانوا يسعون لتجسيد بطولة ملوك اليمن القدماء ومآثرهم بالشكل الذي يلقي استجابة عاطفية قوية ممن يستمعون إلى رواياتهم . والكلام عن « منهج بحث » أو « دراسة تاريخية » في هذه الظروف يعتبر نوعاً من الأخطاء المنهجية التي تتجاهل الحقيقة القائلة بأن « العلم » و « مناهج البحث » في هذا العلم تربطها علاقة جدلية تجعل من العبث الحديث عن مناهج بحث في وقت كان موضوع التاريخ ما يزال غير قادر عن الفكك من أسر الخرافة والأسطورة والخيال . وإذا ما تذكرنا ، مرة أخرى ، أن المنهج هو العمليات العقلية والاستدلالية التي تساهم في حل مشكلات العلم ، وتدخل في بنية العلم أيضاً ، لوجدنا أن رواة هذا النمط من « التاريخ » كانت تحكمهم أغراض أخرى غير « البحث » عن الحقيقة التاريخية ، وهي ذات الأغراض التي تحكم رواة فنون الأدب الشعبي .

وعلى أية حال ، فإن التراث التاريخي يكشف عن توظيف المعرفة التاريخية في خدمة أهداف ثقافية / اجتماعية . كذلك لم يكن التاريخ بالنسبة للعرب قبل الإسلام بحثاً عن الحقيقة ، كما أنهم لم يروا في العملية التاريخية نتاجاً لتفاعل الإنسان مع بيئته في إطار زمني محدد ، وكان هذا في الواقع تعبيراً عن مرحلة من مراحل التطور الحضاري . وقد افترق التراث التاريخي العربي إلى الوعي المزدوج بالزمن والحقيقة . وكانت تسجيلاتهم التاريخية الباكورة سنداً وعوناً للعرب في مواجهة ضرورات الظروف التي حكمت الحياة العربية على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي . ومن هنا كان منهج الكتابة التاريخية محكوماً بهذه المعوقات التي دخلت في بنية « العلم التاريخي » في ذلك الدور الباكر من تاريخه ، كما كان محكوماً بموضوع التاريخ ، والهدف من الكتابة ، أو الرواية التاريخية .



(٤١) تم نشر هذا الكتاب ضمن كتاب التيجان (ص ٣٢٥ - ص ٤٠٥) ، وهو على شكل حوار بين الخليفة الأموي (معاوية بن أبي سفيان) ، (وعبيد بن شربة) .
(٤٢) جب ، علم التاريخ ، ص ٤٧ - ص ٤٨ .

بعد ظهور الإسلام حدثت تغييرات جوهرية في حياة العرب ، وانعكست هذه التغيرات على شتى نواحي الحياة . وكان لابد لفكرة التاريخ أن تخضع لهذه التطورات ، فقد كانت الأفكار القرآنية عن التاريخ بؤرة التطور الذي شهده علم التاريخ من ناحية ، كما كانت الظروف الموضوعية والتطورات السياسية والاجتماعية والسياسية والثقافية حافزا لهذا التطور وموجهاً له من ناحية أخرى . وقد أدى هذا ، بطبيعة الحال ، إلى نقلة نوعية هامة وحاسمة في مناهج الدراسات التاريخية ، وبنية علم التاريخ نفسه . ويمكن رصد هذه المعطيات الجديدة ، التي أثرت على الفكر التاريخي ومناهج البحث في موضوعاته ، على مستويين :

أولهما : المستوى الفكري المتصل بالعقيدة نفسها .

ثانيهما : المستوى الواقعي المتمثل في الظروف التاريخية الجديدة التي فرضت نفسها في ظل تطور الحضارة العربية الإسلامية بمراحلها المختلفة .

وفكرة التاريخ في القرآن الكريم ، على نحو ما توضحه آيات القرآن الكريم ذات المضمون التاريخي ، تجسيد للتصور الإسلامي لرسالة الإنسان في الحياة . فالإنسان ، حسب المفهوم الإسلامي ، خليفة الله في الأرض ، وقد تحمل أمانة إعمار هذه الأرض وبناء الحضارة ونشر الحق والعدل في ربوعها وفق سنة الله ^(٤٣) . ولكي يستطيع الإنسان أن يقوم بدوره هذا ينبغي أن يتعرف على ذاته حتى ينجح في أداء رسالته . وقد دعا القرآن الكريم المسلمين إلى التعرف على ذاتهم الحضارية في قوله تعالى : «أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .» ^(٤٤) هذه الدعوة إلى معرفة الذات يمكن للإنسان أن يحققها من خلال رصد الماضي الحضاري للبشر .

وهنا نلاحظ أن فكرة التاريخ في القرآن الكريم تقوم على أساس أن التاريخ فعل إنساني في التحليل الأخير ، فالفعل التاريخي نتاج لتفاعل الإنسان مع بيئته في إطار الزمان ، وهو أيضا خير وسيلة لكشف ماهية الإنسان . ولذلك نجد المادة التاريخية في القرآن الكريم تحكي قصة الأقاليم والحضارات التي شهدتها مسيرة البشر عبر الزمان ، مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ومدين وغيرهم . ^(٤٥)

يبد أن هذه القصص التاريخية الواردة في ثنايا آيات القرآن الكريم ليست هدفا في حد ذاتها ، وإنما تهدف إلى إثارة الفكر البشري ودفعه إلى التساؤل والبحث عن الحق باستمراره على حد تعبير أحد الباحثين . ^(٤٦) وقد أدى هذا

(٤٣) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص ٥٥ - ٥٧ . حيث ترد مناقشة تفصيلية لفكرة مسئولية الإنسان في الأرض كما حددتها القرآن الكريم .

(٤٤) سورة الحج : آية ٤٦ .

(٤٥) انظر على سبيل المثال : سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الأنبياء ، وسورة المؤمنون وسورة الشعراء ، وسورة القصص .

(٤٦) عبد الدين خليل ، التفسير الإسلامي للتاريخ (بيروت ١٩٧٥ م) ، ص ١٠٦ .

إلى تطور هام في مناهج البحث التاريخي ، إذ نزل التاريخ إلى عالم الواقع ، وراح المؤرخون يبحثون في قصة الإنسان على الأرض . أي أن البحث التاريخي اهتم بالأحداث «التاريخية» التي صنعها البشر في بيئتهم ، وداخل إطار زمانهم . وبدأ البحث التاريخي ينشد الحقيقة وبدأ خطواته العلمية الأولى في تراث الثقافة العربية الإسلامية باستعارة مناهج علم الحديث باعتبارها وسيلة لضبط الرواية التاريخية وفق مقياس أخلاقي يستند إلى «الجرح والتعديل» الذي كان منهجاً يستند إلى الجدارة الأخلاقية للرواة . وعلى الرغم من ذلك فإن مناهج البحث كان عليها أن تنتظر طويلاً حتى تأخذ شكلها العلمي الذي بلوره ابن خلدون في مقدمته الشهيرة .

ويطرح القرآن الكريم من خلال المادة التاريخية التي تتضمنها الآيات الكريمة ، النتائج التي يمكن الخروج بها من دراسة التاريخ الإنساني وإمعان النظر في وقائعه والتأمل في أحداثه . والهدف هنا عملي علمي وتربوي أيضاً . فالقرآن الكريم يصور في وضوح شديد أن ثمة قوة في الحق ، وأن الفشل يمحى بالباطل في النهاية . فما يناله الإنسان ، فرداً وجماعة ، يكون نتيجة طبيعة للدور التاريخي الذي مارسه . ومن ناحية أخرى ، يوضح القرآن الكريم أن التغير التاريخي لا يحدث فجأة ، إذ يحدث تراكم بطيء عبر الزمان للأسباب التي ينتج عنها تغير تاريخي كبير بعد فترة زمنية طويلة .^(٤٧)

وهنا نلاحظ أن التاريخ لا يجري اعتباطاً ، كما أن حركة تطوره ليست حركة عشوائية ، وإنما هي محكمة بسنن وقوانين منذ بداية الخلق وحتى يوم القيامة .^(٤٨)

فالمادة التاريخية الواردة في القرآن الكريم تقوم على أساس أن للتاريخ معنى أخلاقياً وروحياً محوره دور الإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض ، ويوصفه مستولاً عن تعميم العالم وإقامة الحق في ربوعه . وفي هذا الصدد نجد آيات كثيرة تبرز اتجاهها يؤكد أن التاريخ مستودع للعظات والعبر التي يجب على الإنسان أن يتلمسها في أخبار الأمم الماضية . ومن أمثلة السور القرآنية التي تضمنت مادة تتعلق بتاريخ الأمم الماضية : هود والأعراف والأنبياء والمؤمنون والشعراء والقصص . وثمة حقيقة يؤكدها القرآن الكريم مؤداها أن الفعل الإنساني في التاريخ سبب له نتائج التي يتحدد بها مصير البشرية . وبعبارة أخرى ، فإن الإنسان هو صانع التاريخ .^(٤٩)

هكذا إذن ، تحددت أبعاد فكرة التاريخ في القرآن الكريم على أساس من المفاهيم القرآنية . وكان لهذا انعكاسه الإيجابي على تطور مناهج البحث التاريخي وتقدمها نحو البحث في السببية على أسس وضعية وإنسانية . فقد

Mozheruddin siddigi, the Quranic Concept of History, (Karachi, 1965), p. 10.

(٤٧)

أنظر أيضاً : هادي الدين خليل ، التفسير الإسلامي ، ص ١٠٨ - ص ١٠٩ ، قاسم عبد قاسم الرؤية الحضارية ، ص ٨١ - ص ٨٣ .

(٤٨) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، ج ١ ، ص ٢٣٩ - ص ٢٤٠ .

(٤٩) قاسم عبد قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص ٥٥ - ص ٥٧ ، عفت الشرفاري ، أدب التاريخ ، ج ١ ، ص ٢١٠ - ص ٢١٢ .

استخدم القرآن الكريم المادة التاريخية لتأكيد مسئولية الإنسان عن مصيره في الحياة الدنيا ، وحرصت الآيات على تأكيد هذه المسئولية من خلال العبرة والعظة ، ولا غرو أن نظرة المسلمين إلى التاريخ لم تخل من الجانب الأخلاقي المتصل بالعقيدة في أساسه . وقد فرضت هذه الرؤية التربوية التعليمية للتاريخ نفسها على المؤرخين المسلمين ، وقد أوردوا في مقدمات كتبهم ما يشي بأنهم عملوا في إطارها كذلك فإن سطور كتبهم حفلت بالشواهد والأدلة عليها .

ولما كانت الخلفية الثقافية للمؤرخين المسلمين قائمة بالضرورة على أساس من المفهوم القرآني فقد كان طبيعياً أن يتبع فهمهم للجدوى الأخلاقية / التعليمية للتاريخ من هذه الخلفية . وقد جسد ابن خلدون هذه الرؤية بقوله : «وإعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياساتهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدنيا والدين . . . »^(٥٠) ويؤكد شمس الدين السخاوي^(٥١) هذا المعنى في كتابه الذي ألفه دفاعاً عن التاريخ .

وعلى أية حال ، فإن المؤرخين المسلمين ظلوا متأثرين بالرؤية القرآنية لدور التاريخ في خدمة الجانب الأخلاقي التعليمي في المجتمع المسلم ، بل إن منهم من قسم (فوائد التاريخ) إلى قسم دنيوي وقسم أخروي ، بيد أن هذا التقسيم لم يخرج عن نطاق العظة والعبرة والمعنى الأخلاقي والمغزى التربوي ، مما يجعل الحياة ناجحة في الدنيا ، ويضمن المصير في الآخرة .^(٥٢)

هذا هو تأثير الجانب العقيدي على فكرة التاريخ في تراث الحضارة العربية الإسلامية ، وهو تصور ركز على مسئولية الإنسان في الفعل التاريخي من ناحية . كما ترك بصماته الواضحة على التصور الإيجابي في مناهج البحث التاريخي من ناحية أخرى . لقد أصبح التاريخ ، بأحداثه وأشخاصه من شئون البشر ، واختفى تدخل الألهة في مجرى العملية التاريخية لصالح القبائل والشعوب ، كما تخلص التاريخ من شبك الأسطورة إلى حد كبير . وكانت النتيجة الطبيعية أن التزمت الرواية التاريخية بإطار الزمان وحدود المكان ، كما بحث المؤرخون عن الحقيقة وفاضلوا بين رواية وأخرى . ومنذ البداية تأثرت مناهج البحث التاريخي بمناهج علم الحديث في إسناد الرواية التاريخية ، ثم نقدها على أساس التاريخ الشخصي للرواية .

ومن ناحية أخرى ، فرضت التطورات التاريخية التي لحقت بدار الإسلام استخدامات جديدة لعلم التاريخ في خدمة الحضارة العربية الإسلامية . وإذا كان تأثير الجانب العقيدي قد انتضح في صياغة فكرة التاريخ ، فإن تأثير هذه التطورات التاريخية يمكن رصده من خلال أنماط الكتابة التاريخية التي عرفها تراث الثقافة العربية للإسلامية . ومن

(٥٠) مقدمة ابن خلدون (طبعة كتاب التحرير ، القاهرة ١٩٦٦ م) ، ص ١٤ .

(٥١) السخاوي ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (محقق فرائز روزنتال وترجمة أحمد صالح العل ، بغداد ١٩٦٣ م) ، ص ٣٦ - ص ٣٨ .

(٥٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ (دار صادر ، بيروت) ج ١ ، ص ٦ - ص ٩ . ويرى ابن الأثير أن القصص وردت في القرآن الكريم لهذه الحكمة .

الطبيعه أن ينعكس ذلك أيضا على مناهج الدراسات التاريخية بحيث تبلورت في نهاية الأمر في ذلك المستوى الراقي لمنهج البحث التاريخي الذي أوضحه «ابن خلدون» في مقدمته الشهيرة .

بيد أننا يجب أن ندرك أن تطور أنماط الكتابة التاريخية في التراث العربي الإسلامي كان يسير في خط مواز للتطور الذي ألمّ بدار الإسلام خلال مراحل نموها الحضاري .. ومثلما كان لفكرة التاريخ في القرآن الكريم أثرها في صياغة الفكر التاريخي على الصعيد النظري ، كان للرغبة في تفسير آيات القرآن الكريم أثرها على الأشكال الأولية من أنماط الكتابة التاريخية . لقد كان أول تطور في الدراسات التاريخية تلبية لضرورة ثقافية / اجتماعية ملحة في حياة المجتمع المسلم هي تفسير القرآن الكريم . وفي رأينا أن التفسير يعد ضرباً من ضروب البحث التاريخي .

وهنا نجد الخطوات الأولى لمناهج البحث التاريخي تتعثر بين الرغبة في معرفة الحقائق والنقص الحاد في المعارف والمعلومات التي توصل إلى معرفة الحقيقة . وربما كان هذا هو السبب في أن رجلين مثل «كعب الأحبار» (ت ٥٣٤) و«وهب بن منبه» (ت ١١٠هـ ؟) قد استكملا هذا النقص بروايات خيالية من التراث العبراني والمسيحي . وقد ظلت رواياتهما مصدراً مشتركاً لكتب التفسير طوال عصور الثقافة العربية الإسلامية .^(٥٣)

واللافت للنظر أن مناهج الجرح والتعديل في الحديث كانت تستهدف الحقيقة من خلال ضوابط نقدية صارمة . وقد كانت هذه المناهج من أهم روافد مناهج البحث عند المسلمين فقد كان الرسول (عليه الصلاة والسلام) شخصية تاريخية عاش في فترة تاريخية معلومة بحدود الزمان والمكان ، ومارس أفعالا تاريخية تركت أثرها في تاريخ العالم ، كما كانت أحاديثه موجهة إلى الناس ، وتناقلها بالرواية عدة رواة يحتمل فيهم الصدق كما يحتمل الكذب . ومن ثم بدأ علم الحديث يستخدم منهجه النقدي في البحث عن الحقيقة التاريخية . وكانت تلك مرحلة هامة من مراحل تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية . لقد نبذت فكرة الركون إلى دور القوى الغيبية في صنع تاريخ البشر ، وتم التأكيد على مسئولية الإنسان عن صنع تاريخه وبناء حضارته بيد أن هذا لا يعني من ناحية أخرى ، انعدام العنصر الغيبي والأسطوري في الكتابة التاريخية ، فالواقع أن تطور المناهج الجديدة في الدراسات التاريخية قد دفع بالكتابة التاريخية إلى الأمام ، ولكن الأساليب القديمة كانت ما تزال موجودة . ومن المهم أن نلاحظ أن هذه سمة من سمات تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية (وفي غيرها من العلوم) ، إذ أن تطور مناهج البحث يدخل في الخط العام لتطور العلم نفسه ، ولكنه لا يقضي على الأساليب والنماذج والمناهج القديمة التي تظل موجودة ، جنباً إلى جنب ، مع المناهج الجديدة فترة من الزمان .

ومن ناحية أخرى ، كان لاهتمام بالأحاديث النبوية أثره في ظهور نمط آخر من أنماط الكتابة التاريخية هو «السيرة والمغازي» التي كانت استجابة لحاجة ثقافية / اجتماعية في المجتمع المسلم الذي أراد أفرادها الوقوف على

(٥٣) حسين نصار ، نشأة الكتابة التاريخية في الأدب العربي (ط ١ - ثالثة ، القاهرة ، ١٩٦٦ م) ص ١٧٥ - ص ١٧٧ .

تفاصيل حياة الرسول (ص) وأفعاله التاريخية . وتقلنا «المغازي» للمرة الأولى إلى الكتابة التاريخية بالمفهوم الحديث لأنها كانت تبحث في سيرة الرسول (ص) وغزواته وسراياه ، وتجمع في الوقت نفسه أخبار الأحداث التاريخية الأولى التي واكبت قيام الأمة الإسلامية مثل الهجرة إلى الحبشة والمدينة ، ورسائل النبي (ص) إلى الحكام المعاصرين ، وهذه كلها أخبار «تاريخية» اتخذت هذا النمط استجابة لحاجة المسلمين إلى معرفة أخبار الفترة التاريخية التي وضعت فيها اللبنة الأولى في حضارتهم ، والتي شهدت انتشار الإسلام أيضا .

وكان لابد من تغيير في منهج البحث والرواية لكي يناسب هذا التطور الجدي في ميدان الكتابة التاريخية ، وبذلك خطت الكتابة التاريخية خطوة أبعد من منهج علم الحديث في ضبط الرواية .

والواقع أن اعتناق العرب للإسلام لم يجعلهم يتخلون عن تراثهم في مجال المعرفة التاريخية قبل الإسلام ، إذ أنهم احتفظوا بالأيام والأنساب ، وقصص عرب الجنوب ولكنهم طوعوها في خدمة الأغراض الثقافية / الاجتماعية التي وجدت بعد الإسلام . ويمكن القول إن فكرة التاريخ قبل الإسلام قد اتخذت مفهوما مغايرا بسبب التطورات التي جددت على مناهج البحث ونية العلم التاريخي نفسه بعد ظهور الإسلام^(٥٤) وقد زاد نشاط علماء الأنساب في عهد «بني أمية» بسبب إنشاء الدواوين ، وبسبب مصالح العصبية من العرب المتنافسين^(٥٥) ، كذلك ينبغي أن نلاحظ أن العرب ، بعد الإسلام ، ظلوا يحتفظون بالتنظيم القبلي أساساً للتنظيم الاجتماعي على الرغم من خضوعهم لسلطة عامة ، وقد أدت هذه الظروف إلى ازدهار علم الأنساب بعد الإسلام .^(٥٦) بيد أن الهدف من هذا النمط من المعرفة التاريخية لم يظل كما كان في الجاهلية ، وهو ما أدى إلى تغير جوهري في منهج النسابين الذين اهتموا برسم شجرات النسب ، بصورة جافة ، تخدم غاية أساسية هي تأكيد الأنساب .

على أية حال ، فإن موضوعات التاريخ في تلك المرحلة من تاريخ الثقافة العربية الإسلامية كانت تعالج أحداثا دنيوية بحتة ، فسيرة النبي (عليه الصلاة والسلام) ومغازيه ليست سوى أحداث تاريخية جرت على أرض معروفة بحدودها الجغرافية في فترة تاريخية محدودة بحدود الزمان . وإذا كانت موضوعات «التاريخ» قد اختلطت بغيرها من الموضوعات ، مثل الفقه والحديث ، فالثابت أن جهود المحدثين والفقهاء كانت موجهة لحل مشكلات دنيوية على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي . بل إن فكرة التاريخ في القرآن الكريم كانت تدور حول هدف دنيوي عملي هو تربية المسلمين وتعليمهم من خلال دروس التاريخ وما تحمله من عظة وعبرة .

(٥٤) حسين نصار ، المرجع السابق ، ص ٢٢٢ - ص ٢٢٤ ، محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، ج ١ ، ص ٢٤٧ .

(٥٥) جب ، علم التاريخ ، ص ٥٠ .

(٥٦) ازدهر علم الأنساب بعد الإسلام ولعل أسوأ كتيرين من النسابة في العصر الأموي الذي شهد تميز العرب على غيرهم من المسلمين : انظر :

ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٥٣٤ - ص ٥٣٦ ، بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ج ١ ص ٢٥٣ .

والنتيجة الطبيعية لهذه البداية «التاريخية» لعلم «التاريخ» في تراث الثقافة العربية الإسلامية أن تتأثر مناهج البحث بموضوع الدراسة التاريخية وهذفها ولأن الدراسات التاريخية عند المسلمين بدأت من أرضية إنسانية وضعية ترى أن الإنسان هو صانع التاريخ ، والمستول عن قيام الحضارة أو سقوطها ، فإن مناهج البحث صارت هي الأخرى تستهدف الحقيقة وتبحث عن العلاقة السببية في الحوادث التاريخية . وإذا كانت فكرة العناية الإلهية بشئون البشر موجودة في تراث الثقافة العربية الإسلامية ، بشكل عام فالواضح في تراث الكتابة التاريخية أن العناية الإلهية لا توازر المسلمين لمجرد أنهم مسلمون ، ولكنها توازرهم إذا كان «فعلهم التاريخي» في الدنيا قوياً متوافقاً مع أوامر الله ، وإذا تنكبوا سواء السبيل حاق بهم البوار والخسران . ويعني هذا ، في التحليل الأخير ، أن الإنسان مسئول عن فعالة في الدنيا . ولقد كانت هذه النظرة ذات تأثير عميق على رؤية التاريخ باعتباره تجربة إنسانية ، مما أثر بدوره مع مناهج البحث التاريخي التي اهتمت بالأسباب الوضعية المفسرة للظاهرة التاريخية .

ومن ناحية أخرى ، كانت للتطورات التي شهدتها الفترة الباكورة من تاريخ المسلمين ، سياسياً وعسكرياً واقتصادياً تأثيراتها الفكرية والاجتماعية بعيدة المدى . إذ استمرت حركة الفتوح الإسلامية في عتفوانها حوالي قرن من الزمان ، ونتج عنها أن دخلت تحت راية الإسلام شعوب عريقة ذات أصول حضارية بعيدة . وبطبيعة الحال أدت هذه التطورات إلى نشوء الحاجة إلى أنماط جديدة للكتابة التاريخية . وهو الأمر الذي أدى بدوره إلى تطور مناهج البحث وفق الأنماط العديدة التي أفرزها تطور علم التاريخ في الثقافة العربية الإسلامية .

فقد أوجدت حركة الفتوح الإسلامية نمطاً من الكتابة التاريخية يهتم بفتوح البلدان بقصد التعرف على ظروف فتح كل بلد ، وكان هناك عدد من الإخباريين في كل بلد تخصصوا في جمع أخبار هذا البلد ، والروايات المتعلقة بظروف فتحه ، وتدوينها . وكان منهج أولئك الإخباريين بسيطاً يقوم على أساس الروايات المختلفة حول الحادثة التاريخية الواحدة دون محاولة للتحقيق أو التدقيق . ولأن عدداً من هذه الروايات كانت عملاً للتداول الشفهي حتى القرن الهجري الثالث على الأقل ، فإن كتب الفتوح تحمل مشكلات كثيرة حول التواريخ والأحداث والأشخاص المشاركين فيها تحير الباحثين حتى اليوم . وكان العيب المنهجي الناجم عن جمع الروايات دون تحقيقها سمة مشتركة بين كثير من هذه الروايات التاريخية حول فتوح البلدان .

كذلك أدى دخول الشعوب ذات الحضارات القديمة في الدين الإسلامي إلى تطور آخر في علم التاريخ ومناهج البحث فيه ، إذ نشأت الحاجة إلى معرفة تواريخ هذه الشعوب قبل الإسلام عما أدى إلى بروز مجال جديد للكتابة التاريخية . وكانت تلك هي المرحلة التي مهدت لظهور التواريخ المحلية . ويمكن أن نشير إلى عدد من تخصصوا في هذه الأخبار التاريخية التي تتناول الفترة السابقة على الإسلام ، مثل «محمد بن السائب الكلبي» و«عوانة بن الحكم» (ت ١٤٧هـ) و«أبو مخنف الأزدي» (ت ١٥٧هـ) . و«سيف بن عمر» (ت ١٧٠هـ) وغيرهم . بيد أن أهم

هؤلاء جميعاً هو «محمد بن عمر الواقدي» (ت ٥٠٧ هـ) الذي كانت كتبه عنواناً على تقدم واضح في مناهج البحث التاريخي.^(٥٧)

ومع بداية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) كان في متناول المؤرخين المسلمين كم هائل من المادة التاريخية التي خلفها لهم كتاب السيرة النبوية والمغازي، ومؤلفو كتب الطبقات وكتب الفتوحات. كذلك ساعدت الظروف التاريخية على ازدهار المعرفة التاريخية، وتعدد أنماط الكتابة، فضلاً عن تطور مناهج البحث. ففي سنة (١٧٨ هـ) تم في بغداد تأسيس أول مصنع للورق الذي حل بالتدريج محل الرق والبردي وغيرهما من مواد الكتابة التاريخية المعروفة آنذاك. ومن ناحية أخرى كانت دواوين الدولة تحفل بالوثائق والسجلات التي بدأت تدخل ضمن نسج المادة التاريخية^(٥٨)، فضلاً عن أن بعض الخلفاء الأوائل كانوا يرون في التاريخ نوعاً من الثقافة السياسية فقد كان «معاوية بن أبي سفيان» يخصص شطراً من الليل للاستماع إلى قصص التاريخ التي تتناول أخبار الملوك والحروب والمكائد السياسية. ومن نتائج هذه المجالس ظهرت الروايات التاريخية المنسوبة إلى «عبيد بن شربة».^(٥٩)

لقد تضافرت عوامل كثيرة لتمهيد الطريق أمام التطور الهام الذي لحق بعلم التاريخ عند المسلمين منذ القرن الثالث الهجري فصاعداً. وجاء ظهور الأنماط المختلفة من الكتابة التاريخية ظهوراً طبعياً. ويمثل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) مرحلة تطور هامة وحاسمة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية. وظهرت المدارس الفكرية المختلفة في شتى أنحاء دار الإسلام. وتمثل الازدهار العلمي والفكري في مظهرين رئيسيين: السفر والرحلة في طلب العلم بين مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وتعدد المؤلفات التي كتبت في شتى فروع العلم والمعرفة. كذلك فإن السلام الذي تحقق في ظل وحدة دار الإسلام خلق جوّاً من الاستقرار انعكس على الروح الإبداعية في الحضارة العربية الإسلامية. وكان لا بد أن ينال علم التاريخ نصيبه من هذا الازدهار.

فقد أدى ذلك بالضرورة إلى تراكم هائل، على المستوى النوعي والكمي، في مجال الكتابة التاريخية التي شهدت مرحلة انتقال منهجية هامة، نقلت كتابة التاريخ من مجرد التجميع والتأليف والوصف إلى مرحلة جديدة قوامها منهج صارم يقوم على أساس ضبط الرواية وتحقيقها. فقد شهد القرن الثالث الهجري مولد كثير من الحوليات والمؤلفات التاريخية، فضلاً عن ذلك الكم الهائل من المعلومات التي كان الإخباريون ما يزالون يتداولونها بالرواية الشفهية. ولعل أسماء عدد من أعلام التدوين التاريخي، منهم «أبو قتيبة الدينوري» (ت ٢٧٦ هـ)، و«ابن جرير

(٥٧) العبادي، (علم التاريخ عند العرب)، ص ٥١ وما بعدها. وقد ألف الواقدي كتاباً في التاريخ العام حاول فيه أن يتبع تاريخ البشرية منذ البداية حتى عصر الخليفة العباسي هارون الرشيد، ولكن الكتاب مفقود سوى الأجزاء التي نقلها (ابن سعد) منه كتاب (الطبقات الكبرى).

(٥٨) قاسم عبيد قاسم، الرؤية الحضارية، ص ٩٨ - ص ٩٩.

(٥٩) يقال إن «عبيد بن شربة» قد روى أخبار ملوك العرب من حم وخصان، وقد روى أبيهم، وقد حل معاوية ليروى له هذه الأخبار. انظر:

عبيد بن شربة، أخبار اليمن وأشعارها، ص ٣٢٣ - ص ٥٠٤، بروكلمان تاريخ الأدب العربي ج ١، ص ٢٥٠.

الطبري» (ت ٣١٠هـ) . ويعتبر كتاب الطبري «تاريخ الرسل والملوك» تجسيداً للنزعة التاريخية العامة التي خلقتها وحدة العالم الإسلامي ، إذ يتناول هذا الكتاب التاريخ العام منذ الخليفة حتى نهاية سنة ٣٠٢ هجرية ، ويخصص مساحة كبيرة للسيرة النبوية ، إلى جانب حوادث صدر الإسلام ، ثم يرتب الأحداث التاريخية سنة وراء الأخرى .

وبعد «الطبري» رمزاً لفتح مرحلة وبداية مرحلة جديدة في تاريخ التدوين التاريخي في التراث العربي الإسلامي . ففي هذا الكتاب قام الطبري بصياغة تركيبية لكل الأنماط السابقة في مجال التدوين التاريخي العربي ، مثل بداية الخليفة وأيام العرب ، والمغازي ، والسيرة النبوية ، والفتوح ، ثم النمط الحولي الذي ينسب إليه . أما من ناحية المنهج ، فقد اعتمد على منهج الإسناد إلى جانب الوثائق التي بدأ يدخلها في نسج الرواية التاريخية على نحو لم يكن مألوفاً قبل الطبري .

وفي كتاب «تاريخ الرسل والملوك» أرسى الطبري قواعد منهج جديد في البحث والدراسة التاريخية كان يمثل نقلة نوعية في تاريخ الكتابة العربية لم تتكرر بعد ذلك سوى في كتابات عبدالرحمن بن خلدون . ولم يكن ما جاء به الطبري «ابتكاراً» خالصاً . وإنما كان صياغة موحدة لكل التطورات والأنماط والمناهج التي حاولها مؤرخون قبله . وجاءت كتابات الطبري حصداً ناجحاً لكل محاولات من سبقوه . ويرى البعض أن سبب أهمية كتابه يكمن في أنه كان مثالا للصرامة والدقة المنهجية ، إذ طبق الطبري في هذا الكتاب منهج الإسناد تطبيقاً صارماً في مجال التاريخ . ولكي يحدث ذلك لابد له أن يصوغ كتابه على أساس الخبر من ناحية ، وعلى أساس من الجدارة الأخلاقية لمن نقل الخبر من ناحية أخرى . وقد كان من الضروري أن يرتب الطبري كتابه ترتيباً زمنياً على مر السنين^(٦٠) ، فقد اتبع طريقة الحوليات ، وقسم حوادث كتابه وفقاً لتسلسل زمني يبدأ من سنة الهجرة . وقد نهج نهجاً تتابعياً بحيث يروي حوادث كل سنة على حدة متبعاً منهج الإسناد والمنفعة^(٦١) .

بيد أن الطبري لم يقتصر على منهج الإسناد الذي طبقه على روايات كتابه بصرامة فحسب ، وإنما نجد في طيات كتابه الضخيم ما يشير إلى هذه النقلة النوعية التي أشرنا إليها في منهج البحث التاريخي . إذ تبرز أهمية الوثائق والسجلات الحكومية باعتبارها دليلاً يدعم القصة التاريخية وهو يتطور اهتمام بالدليل الوثائقي في الدراسة التاريخية ما يزال يحظى بالاحترام البالغ بين المؤرخين حتى اليوم . ويعني هذا أن المؤرخين المسلمين قد تقدموا خطوة أبعد في تطور منهجهم للبحث في التاريخ . فإلى جانب المشاهدة عن طريق الرحلة أو معاينة الأحداث ، والساع من شهود العيان ، والنقل عن الرواة جاءت الوثائق والسجلات مصدراً جديداً للمؤرخ لإقامة الدليل والبرهان . وكان هذا التطور في مناهج البحث موازياً لتطور في علم التاريخ نفسه . إذ لم يعد معيار صحة الخبر التاريخي هو نفس المعيار

(٦٠) حل أو طيل ، الخطاب التاريخي - دراسة لهجية ابن خلدون (مطبوعات دار الإفتاء العربي - بيروت) ، ص ٣٣ - ٣٤ .

(٦١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (طبعة دار المعارف بالقاهرة) ، ج ٣ ، ص ١٢ وما بعدها . حل سبيل المثال .

الأخلاقي الذي استخدمه منهج التعديل والجرح ، وإنما صار موضوعياً يعتمد على توفر الشواهد المادية التي تؤكد صحة الخبر . وتكمن أهمية كتاب الطبري في أن صفحاته جمعت بين المناهج السائدة والمنهج الجديد في وقت واحد وبشكل تركيبى نادر في المؤلفات التاريخية .

وقد صار كتاب الطبري هذا نموذجاً لكتب التاريخ الإسلامي العام في عصور الثقافة العربية الإسلامية ، كما كان مصدراً اعتمد عليه من جاءوا بعده لمعرفة تاريخ القرون الثلاثة الأولى من عمر الحضارة العربية الإسلامية .

ويمجد بنا أن نشير إلى أن التقدم الذي أحرزه علم التاريخ ومناهج البحث في تلك الفترة لم يكن راجعاً إلى كثرة عدد المؤرخين ، أو نمو المادة التاريخية وتراكمها ، أو تطور منهج البحث التاريخي فحسب ، وإنما كان راجعاً بالضرورة إلى تعدد اتجاهات التأليف التاريخي وأنماطه التي كان كل منها استجابة لحاجة ثقافية / اجتماعية فرضتها الظروف التاريخية للعالم الإسلامي .

وقد شهد القرن الثالث الهجري ، أيضاً ، بروز مراكز ثقافية عديدة متنافسة على امتداد العالم الإسلامي ، وازدهر النشاط العلمي والفكري في مصر وبلاد الشام والمغرب والأندلس ، فضلاً عن بلدان المشرق الإسلامي . وكان علم التاريخ واحداً من ميادين المنافسة . وتمثلت النتيجة النهائية في ظهور التواريخ المحلية التي تتحدث عن تواريخ البلدان ، ثم ظهرت تواريخ المدن التي ذاعت وانتشرت على مدى عصور الثقافة العربية الإسلامية . فقد جدت حاجة ثقافية / اجتماعية جديدة هي منافسة المراكز الثقافية في شتى أنحاء (دار الإسلام) ، إذ كان المسلمون قد صاروا ، منذ القرن الثالث الهجري ، أغلبية في البلاد المفتوحة ، وأخذت كل جماعة تحاول إبراز فضائل البلد الذي تنتمي إليه . ومنذ ذلك الحين ظهرت المؤلفات التاريخية التي تهتم بجمع كل ما يتعلق بإحدى مدن (دار الإسلام) ولم يقتصر الأمر على المدن المقدسة ، مثل مكة والمدينة والقدس ، وإنما اتجه المؤرخون إلى المدن الإسلامية عامة . فظهر تاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وزبدة الحلب من تاريخ حلب لابن النديم ، وتاريخ إربل لابن المستوفى . كما ظهرت خطط القسطنطينية والقاهرة لابن عبدالحكم^(٦٢) ، والقضاعي ، وابن زولاق والأوحدي ، وابن دقاق ، والمقريزي ، والسيوطي وغيرهم .^(٦٣)

وقد تطور هذا النمط الجديد من أنماط الكتابة التاريخية ، أي الخطط التي تجمع بين التاريخ والطبوغرافيا والسكان والجغرافيا . وتحتوي كتب الخطط عادة على قدر معلومات عن تطور المدن وتخطيطها وأحيائها وعناصر السكان والمرافق ذات الوظيفة البلدية ، أو الاجتماعية ، أو الدينية عبر العصور . وترد في ثنايا تلك المؤلفات

(٦٢) جاء هذا الجزء ضمن كتاب عبد الرحمن بن عبد الحكم ، فوح مصر وأخبارها (نشره تشارلز نوري) لندن سنة ١٩٣٠ .

(٦٣) قاسم جده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص ١٠٠ - ص ١٠١ .

معلومات كثيرة هامة عن شتى جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية . وفي مصر كان «عبد الرحمن بن عبد الحكم» هو رائد هذا النمط من أنماط الكتابة التاريخية .

ويعتبر هذا النمط الذي وصل قمة تطوره على يد المؤرخ تقي الدين المقرئ (ت ٨٤٥هـ) ، تطوراً نوعياً هاماً في ميدان الكتابة التاريخية ، سواء على مستوى المعرفة التاريخية أو على مستوى تطور مناهج البحث التاريخي . فقد تحمل كتاب الخطط عن النمط الحولي في رواية الخبر التاريخي ، واختاروا المعالجة التي تتناول كل موضوع على حدة داخل الإطار العام للكتاب . كما أن المؤرخين الذين اهتموا بهذا النمط من التأليف التاريخي تخلو تماماً عن أية أسباب غيبية ويبحثوا عن السببية في نطاقها الإنساني «التاريخي» ، وقد تجسد ذلك تماماً في خطط المقرئ .^(٦٤)

وفي تقديرنا أنه من الصعب أن نتبع جذور نشأة كل نمط من أنماط الكتابة التاريخية في تراث الثقافة العربية الإسلامية . بيد أننا نستطيع من خلال النظر في هذا التراث أن نكتشف مدى التنوع والثراء المذهل في المؤلفات التاريخية ، ومدى استجابة هذه الأنماط من الكتابات التاريخية للحاجات الثقافية / الاجتماعية التي فرضتها التطورات . وقد أحصى «شمس الدين السخاوي»^(٦٥) أنماط الكتابة ، وقصد بهذا الإحصاء أن يكمل الإحصاء الذي وضعه الذهبي من قبل . كما أن السيوطي كانت له محاولة في هذا السبيل أيضاً .^(٦٦)

وقد أحصى لنا السخاوي موضوعات التأليف في ميدان التاريخ فيما يلي :

- ١ - تاريخ الرسول والأنبياء .
- ٢ - تاريخ الصحابة .
- ٣ - تاريخ الأشراف ، أي آل أبي طالب وآل علي .
- ٤ - تاريخ القرشيين .
- ٥ - تاريخ الموالي .
- ٦ - تاريخ الرواة المعتمدين أو المصنفين .
- ٧ - تاريخ رجال علم الحديث .

(٦٤) المقرئ ، المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، (طبعة يولاق ١٢٧٠ هجرية) .

(٦٥) السخاوي ، الإعلان بالتاريخ لمن ذم التاريخ ، ص ٢١٤ - ص ٢٣٨ .

(٦٦) السيوطي ، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (طبعة القاهرة ١٢٩٩ هـ) ، ج ١ ، ص ١٥٨ - ص ١٥٩ ، ص ٢٥٤ - ص ٢٥٦ .

- ٨- تاريخ المعاجم والشيخة .
- ٩- تاريخ المسمين باسم خاص مثل «عطاء الطبراني» أو «عبدالمؤمن الدمياطي» .
- ١٠- تاريخ المعمرين والشبان .
- ١١- تراجم الأفراد .
- ١٢- التواريخ المحلية .
- ١٣- تصانيف البلدان .
- ١٤- مطلق التاريخ ، وهو ما وصفه بأنه «مطلق التاريخ غير مقيد بوصف ولا جنس ، أو نحو ذلك» ، وهو على أقسام :
 - أ- التاريخ على الحوادث .
 - ب- الحوادث والوفيات
 - ج- كتب عن تواريخ الوفيات
 - د- كتب التراجم
 - هـ- كتب تواريخ متنوعة .

وعلى الرغم من التداخل الواضح بين عدد من هذه الموضوعات ، وعلى الرغم من غياب أنماط أخرى من المؤلفات التاريخية من (إحصائية) السخاوي ، فالواضح أن الدراسات التاريخية العربية قد غطت كافة مجالات النشاط الإنساني ، فقد كتب المؤرخون في السيرة النبوية والمغازي ، وفي الطبقات والتراجم ، والتواريخ المحلية ، والخطط ، وتواريخ المدن ، كما كتبوا الرسائل ذات الموضوع التاريخي الواحد ، فضلا عن فلسفة التاريخ . ولم يحدث هذا بين عشية وضحاها بطبيعة الحال ، وإنما كان محصلة تطور طويل المدى . كما أن مناهج البحث كانت تتطور باستمرار لحل مشكلات كل نمط من أنماط الكتابة التاريخية . وقد كانت المناهج في تطورها لخدمة الجديد في مجال الدراسات التاريخية تبقى على طرق البحث التي تناسب القديم أيضا ، ولهذا يبدو تراث التدوين التاريخي في الثقافة العربية الإسلامية وكأنه معرض لتطور علم التاريخ ومناهجه .

والعصر الذي تمثلت فيه كل أغاظ التدوين التاريخي العربي هو عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧م) الذي كان بمثابة المعرض الحي لتاريخ كتابة التاريخ في إطار الحضارة العربية الإسلامية . والواقع أن مصر والشام قد شهدت في ذلك العصر نشاطاً ثقافياً واسع النطاق . لقد كان عصر السلاطين المماليك آخر عصور الحضارة العربية الإسلامية ، وكان التوجه الثقافي والعلمي فيه بمثابة خط الدفاع الأخير عن الثقافة العربية الإسلامية . فقد أدت الظروف التاريخية التي أحاطت بالعالم الإسلامي في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) إلى ظهور دولة سلاطين المماليك في مصر والشام لتقوم بدور القوة المدافعة عن العالم الإسلامي على مدى ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان .^(٦٧) وفي ظل الأمن والحماية التي وفرتها دولة سلاطين المماليك كانت مصر على نحو خاص مقصداً لعدد هائل من العلماء والمفكرين المسلمين من شرق العالم الإسلامي ومغربه ، إذ أن الكوارث السياسية والعسكرية التي حاقت بدار الإسلام في المشرق والمغرب جعلت العلماء والمفكرين والفنانين يهاجرون إلى القاهرة .

لقد شهدت خمسينيات القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) اجتياح المغول لبلدان الشرق الإسلامي ، وقضت هذه الجحافل الظالمة على الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) ، ومن ناحية أخرى ، كانت المساحة الإسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية تتراجع أمام زحف الكاثوليك الأسبان والأوربيين للقضاء على الأندلس . وإزاء مذابح الكاثوليك تزايدت أعداد المهاجرين إلى مصر والقاهرة من أبناء الأندلس ، كما أن الظروف السياسية المتقلبة دفعت عدداً من أبناء المغرب الإسلامي إلى أحضان القاهرة ، ومن أشهرهم «عبدالرحمن ابن خلدون» الذي لم يكن حالة فريدة بين المهاجرين المغاربة . وكان الزمان ما يزال ينتظر بعضاً من أهم إنجازات الفكر والثقافة العربية في عصر سلاطين المماليك .

ولم يكن علم التاريخ بمنأى عن هذه التطورات والأحداث بطبيعة الحال . فقد وصلت الكتابة التاريخية في ذلك العصر إلى قمته في ظل الظروف الثقافية العربية الإسلامية ، سواء من حيث التراكم والنمو المعرفي في التراث التاريخي نفسه ، أو من حيث تطور مناهج البحث في الدراسة التاريخية التي خرجت من حيز «الخبر» و «الرواية» المجردة إلى طور جديد يهتم بمناقشة الأسباب في سياقها الوضعي . وزادت أهمية علم التاريخ باعتباره علماً ذا وظيفة ثقافية / اجتماعية . وتبلورت فكرة التاريخ بشكل واضح حتى وجدنا من مؤرخي ذلك العصر من يكتبون في فلسفة التاريخ ، والأسس النظرية التي يقوم عليها التدوين التاريخي ، ومنهج البحث التاريخي ، مثل «ولي الدين عبدالرحمن

(٦٧) برز المماليك قوة عسكرية أثناء المواجهة بين مصر وقوات الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ، وقد انتهت الحملة بتدمير الجيش الصليبي وأسر الملك الفرنسي لويس التاسع وبرزت قوة فرسان المماليك البحرية وقادهم من أمثال أنطاي وبيبرس وقلاون وغيرهم . وبعد ذلك بعشر سنوات قضى المغول على الخلافة العباسية وهرمهم الجيش المصري بقيادة المماليك (٦٥٨ هـ) في معركة حين جالوت الشهيرة . وأعاد السلطان الظاهر بيبرس أحياء الخلافة العباسية في القاهرة لإضفاء الشرعية على الحكم في الدولة الناشئة - أنظر التفاصيل في : أحمد مختار العياشي ، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام (دار النهضة العربية) بيروت ١٩٨٦ م ، ص ١٠١ - ٢٤٠ .

بن خلدون» (ت ٨٠٩ هجرية) ، كما ظهر من علماء ذلك العصر من كتب في التاريخ مثل «شمس الدين السخاوي» و «جلال الدين السيوطي» .

وقد شهد هذا العصر النقلة النوعية الكبيرة الثانية في تطور مناهج البحث التاريخي ، وهو الاتجاه الجديد الذي بلورته نظرياً ، كتابات ابن خلدون ، كما جسده عملياً كتابات المؤرخين الذين تتلمذوا عليه وأشهرهم «تقي الدين المقرئ» (ت ٨٤٥ هـ) وتكمن أهمية ابن خلدون وكتاباته في آرائه التي طرحها في مقدمته الشهيرة عن علم التاريخ ، إذ أن هذه المقدمة تضمنت آراء ونظريات هامة تمثل حصاد التراث التاريخي على مر عصور الثقافة العربية الإسلامية . ولنا بصدد تكرار ما هو معروف ومشهور من آراء ابن خلدون^(٦٨) ، ولكننا نقصد أن نوضح أن تطور مناهج البحث التاريخي وصل إلى مرحلة جعلت من الضروري مناقشة ونقد مناهج البحث التي قامت عليها أنماط الكتابة التاريخية المختلفة حتى ذلك الحين . وفي تصورنا أن أهم تطور منهجي بلوره ابن خلدون في مجال الدراسات التاريخية هو البحث عن العلاقة السببية الوضعية في وقائع التاريخ نفسها أو في «أحوال العمران» على حد تعبيره .^(٦٩) فقد بلور اتجاهها جديداً في منهج البحث التاريخي يرفض الحكم على صحة الخبر بمعيار أخلاقي يعتمد على عدالة رواية الخبر (كما هو الحال في منهج الجرح والتعديل في الحديث النبوي) وإنما يجعل وقائع التاريخ واتساقها المنطقي ، ومطابقتها لقواعد الاستقراء والاستنباط ، معياراً على صحة الخبر التاريخي .

ولم يكن هذا اتجاهاً جديداً «اخترعه» ابن خلدون ، ولكن المؤرخين المسلمين كانوا قد بدأوا في استخدامه بصورة أو بأخرى منذ وقت مبكر . ولكن أهمية ابن خلدون تتمثل في قدرته على بلورة هذا التطور المنهجي في إطار نظري متكامل . فقد كان المؤرخون قد تجاوزوا منهج الإسناد الذي يعتمد على أخلاقيات الرواة منذ فترة طويلة قبل ابن خلدون ، بل إن «ابن جرير الطبري» نفسه قد استخدم الوثائق والسجلات إلى جانب الإسناد في كتابه الشهير . وعلى مستوى الواقع كان علم التاريخ قد أصبح ممارسة علمية مستقلة عن العلوم الدينية ومناهجها ، ولا سيما علم الحديث .

ومن ناحية أخرى ، لم يكن ما كتبه ابن خلدون إيذاناً بنهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة في مجال الدراسات التاريخية ، ولم يكن ممكناً أن يحدث هذا . فقد استمرت الأنماط والمناهج القديمة تعربد إلى جانب المناهج الجديدة التي

(٦٨) راجع مقدمة ابن خلدون ، انظر أيضاً : عل أو مليل ، الخطاب التاريخي ، ص ١٢٩ - ص ١٧٠ حيث يقدم مناقشة تفصيلية ، من وجهة نظر حديثة ، لآراء ابن خلدون .

(٦٩) مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٧ ، حيث يقول : «والما كان التعديل والجرح هو المتر في صحة الأخبار الشرعية ، لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصحتها . وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة ، بالعدالة والقبض . وأما الأخبار عن الواقعات فلا بد في صحتها وصحتها من اعتبار المطابقة ، فلذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعه ، وصار فيها ذلك أهم من التعديل ، ومقدماً عليه . . . » .

تبلورت في كتابات مؤرخ كبير هو تقي الدين المقرئزي^(٧٠) الذي أبدى اهتماماً واسعاً بجوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

وثمة نغمة آخر من الكتابة التاريخية يمثلها كتاب السخاوي «الإعلام بالتاريخ» وهو كتاب تبريري مكرس للدفاع عن علم التاريخ وجدوى الدراسة التاريخية ، كما يتناول تاريخ التاريخ ويقدم محاولة إحصائية لفروع الدراسة التاريخية على النحو الذي بيناه في الصفحات السابقة .

ولم يكن «ابن خلدون» و «السخاوي» فقط مهتمين بهذه النواحي المنهجية والنظرية في الدراسات التاريخية ، وإنما شاركهما في ذلك عدد كبير من المؤرخين الذين ضَمَّنُوا آراءهم في مقدمات كتبهم أو في طيات صفحاتها ، لكن «ابن خلدون» ، و «السخاوي» يتميزان بأنهما خصصا كتابين لهذا الموضوع وحده .

لقد كانت كتابات مؤرخي القرنين الثامن والتاسع الهجريين تجسيدا لمدى التطور الذي أحرزته الكتابة التاريخية ، ومناهج البحث التاريخي ، في التراث العربي الإسلامي . وقد أفرزت تلك الفترة عددا من المؤرخين الأفاضل ، في مصر والشام ، تجسدت في كتاباتهم فكرة التاريخ ، وعكست أيضا مدى التطور الذي وصل إليه منهج البحث التاريخي .

وفي كتابات كل من بيبس الدوادار الناصري (٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) وأبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) ، وابن فضل الله العمري (٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) ، وشمس الدين الذهبي (٧٤٨ هـ / ١٣٤٩ م) ، والقلقشندي (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، وابن حجر (٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) والمقرئزي (٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) ، وابن تغري بردي (٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) وابن إياس (٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) . . وغيرهم نجد تراثا متنوعا ومثريا في أنماط الكتابة التاريخية ، كما نلاحظ تفاوت مناهج الدراسة التي تدل على أن المناهج القديمة كانت ما تزال تعربد الى جانب المناهج الجديدة^(٧١) ومن البديهي أن هذا التراث المتنوع من الكتابات التاريخية الذي حفظه لنا عصر سلاطين المماليك قد عكس تطور العلم التاريخي من حيث المستوى المعرفي ومناهج البحث والدراسة على حد سواء .

وتكشف دراسة هذا التراث عن العلاقة بين علم التاريخ ومناهج البحث فيه كانت علاقة جدلية ، فيقدر مساهمة المناهج في بناء العلم بقدر ما كان التطور المعرفي يساعد على تطوير مناهج البحث وطرق البحث وأساليبه .

(٧٠) المواقف أن فكرة التاريخ لدى المقرئزي ، ومنهجها في الكتابة التاريخية ، وتحليله الناقد لكافة الظواهر التاريخية ، فضلا عن استيعابه الكامل للأفكار التي طرحها ابن خلدون وقدرته على تطبيقها على نحو لم يستطع ابن خلدون نفسه أن يجعله في كتاب (المبر) كل هذا يجعل من المقرئزي هاما من أعلام الفكر التاريخي . انظر على سبيل المثال كتابه أحاطة الأمة بكشف الغمة ، نشره محمد مصطفى زبادة وجمال الدين الشيباني (القاهرة ١٩٤٠ م) .

(٧١) انظر تحليل مؤلفات أولئك المؤرخين ومناهجهم .

وكانت تلك قمة تطور الدراسات التاريخية في تراث الثقافة العربية الإسلامية ، فعند القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) اكتسبت الرواية التاريخية طابع السرد والاجترار ، وتسجيل الشهادات التاريخية ، أو إعادة ما كتبه المؤرخون السابقون بصورة اجترارية . وكان ذلك في حقيقة الأمر انعكاسا لتدهور عام ألم بالحضارة العربية الإسلامية عامة .



أما التراث التاريخي لدى الغرب الأوربي في معناه الواسع ، فقد ولدت بداياته في الإلياذة والأوديسة المنسوبتين إلى هوميروس . فعلى الرغم من الطابع الخيالي العام في هاتين الملحميتين ، فإن من الممكن لدارسي الحضارة استخدام الإلياذة والأوديسة لتصوير حقبة من حياة الإغريق القدامى دون الوقوع في خطأ فادح . وعلى الرغم من أن علماء الآثار قد كشفوا عن تاريخية حرب طروادة التي أنشدها هوميروس بالشعر والقصص فإن اختلافات كثيرة ما تزال قائمة بين ما أنشده الشاعر وما كشف عنه البحث التاريخي والأثري الحديث .^(٧٢) ومن يبحث في هاتين الملحميتين عن التاريخ يجد خيالا كثيرا ، ومن يبحث عن الخيال يجد تاريخا كثيرا ، إذ أن هذه البدايات الأولى لعلم التاريخ عند الإغريق كانت مكبلية بأغلال الأسطورة والخيال . ومن ناحية أخرى ، تكشف هاتان الملحمتان عن أن الآلهة تمارس نوعا من الرقابة على العالم ، وأن نطاق القدرة الإنسانية ينتهي عند حدود معينة ، إذ كانت آلهة الإغريق تتدخل في مسلك الناس الواقعي .^(٧٣) وقد أثر ذلك بطبيعة الحال على رؤية الإغريق للتاريخ حتى ظهور كتاب هيرودت .

ولم تبدأ الكتابة التاريخية بمعناها التقليدي قبل توفر شروط معينة في الحياة الثقافية الاجتماعية في الحضارة الإغريقية القديمة ، وهو الأمر الذي لم يحدث قبل القرن السادس قبل الميلاد . وتحلى ذلك واضحا في الكتابات النثرية الراقية ، ونقد الأساطير التي تتعلق ببداية الوجود اليوناني القديم ، ثم تحول الاهتمام إلى الأصول الاجتماعية والمؤسسات التي تنظم حركة المجتمع ونشاطه . ويمتصف القرن السادس قبل الميلاد بدأت الرواية التاريخية تظهر في مدينة ملطية Miletus على ساحل أيونيا Ionia (آسيا الصغرى) ففي هذا القرن قدّم كادموس الملطي Cadmus of Miletus نموذج الكتابة النثرية عوضا عن الشعر ، ويعد « كادموس » هذا واحدا من أوائل كتاب النثر الإغريق logographoi^(٧٤) وفي الفترة نفسها ظهرت الفلسفة التأملية التي جلبت معها أصول الفكر الحر والفلسفة النقدية . ومن ناحية أخرى ، فإن حركة الاستعمار الإغريقي ، والنشاط التجاري مع الشرق - فضلا عن السفر إلى بلاد الشرق - كلها كانت من العوامل القوية التي ساهمت في تحضر إغريق آسيا الصغرى . وبحر إليه على السواء . وقد

قاسم حيد قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص ١١٥ - ص ٢٦٢ .

(٧٢) لطفى عبدالوهاب ، (عالم هوميروس) ، مجلة عالم الفكر (المجلد الثاني عشر ، أكتوبر - ديسمبر ١٩٨١م) ، ص ١٣ - ص ١٥ .

(٧٣) ويدجري ، المذاهب الكبرى في التاريخ - من كونفوشيوس إلى توينبي ، ترجمة نوقان قرقوط ، (بيروت ١٩٧٣) ، ص ٧٨ - ص ٧٩ . ومن المهم هنا أن نشير إلى أننا استخدمنا ترجمة أخرى لهذا الكتاب (ترجمة عبدالعزيز جاويد) أشرنا إليها في الصنحات الأولى من هذه الدراسة . وسوف تكون إشارتنا التالية هذه الترجمة .

(٧٤) Barnes, A Hist. of Historical Writing, P. 26.

أدى هذا بدوره إلى تطوير الفكر الإغريقي ومولد الروح النقدية التي تمثل أساس الفلسفة الإغريقية والأدب ، إلى جانب الكتابة التاريخية أيضا . وهذا الاتصال الثقافي استغزى حب الاستطلاع ، ولم يكن من قبيل الصدفة أن هيكاتيوس Hecataeus (ولد سنة ٥٥٠ ق.م) ، أول المؤرخين الإغريق ، قد سافر كثيرا إلى مصر .^(٧٥) كما أن استيلاء الفرس على آسيا الصغرى ، أوجد المزيد من فرص الاتصال الثقافي .

وهكذا يمكن اعتبار نشوء الكتابة التاريخية الإغريقية جزءا من الحركة الفكرية الكبرى المعروفة بظهور الكتابات النثرية logographoi وظهور التيارات الفلسفية النقدية بين إغريق أيونيا (آسيا الصغرى) .

على أن الكتابات التاريخية الإغريقية في تلك الفترة لم تخل من التأثير الأسطوري والديني الذي يطبع المرحلة الأولى في تاريخ الكتابة التاريخية لدى كل أمة . ذلك أن هسيود Hesiod كتب التاريخ كما كتب عن الآلهة الإغريقية وحاول أن يحد لها نسبا .

ثم أخذت الاتجاهات الثقافية تتصاعد في مجال الكتابة النثرية . وما بين شجرات النسب التي حاول هسيود أن يثبت بها « أنساب » الآلهة ، وكتاب « التواريخ » الذي كتبه هرودوت تحت بسرعة عدة إنجازات في مجال الكتابة التاريخية ، إذ أن خارون لامبساكوس Charon of Lampsacus وديونيسيوس الملطي ، ألفا في تاريخ الفرس في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، كما أن سكيلاكس كارياندا Scylox of Caryanda كتب أول سيرة تاريخية وفي آخرها القرن الخامس قبل الميلاد ألف أنطيوخوس السيراكيوزي Antiochus of Syracuse أول كتاب تاريخ عن الشعوب اليونانية . ويعتبر هيلانكوس ليسبوس Hellanicus Lesbos من أهم المؤرخين القدامى الذين مهدوا لظهور هرودوت . إذ أنه لم يتعرض لتاريخ بلاد فارس وبلاد اليونان من وجهة نظر اجتماعية واسعة فحسب ولكنه كان أيضا أول مؤرخ إغريقي يدرك أهمية نظام زمني للتابع التاريخي .^(٧٦)

كان أول مؤلف تاريخي شامل كتبه واحد من الإغريق هو كتاب هرودوت Herodotus of Halicarnasus (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م تقريبا) . وقد تناول فيه العلاقات الإغريقية - الآسوية من سنة ٥٦٠ ق.م . حتى هزيمة الغزاة الفرس في بلاد اليونان سنة ٤٧٨ ق.م وكانت هذه النقطة في ميدان التأليف التاريخي عند الإغريق ناجمة عن الحروب الفارسية التي أبقت في عقول الإغريق الاهتمام بحضارات الشعوب الشرقية . وفي هذا السياق ظهرت (تواريخ) هرودوت ، وهي عبارة عن تسعة كتب في مجلد واحد . وقد نزلت كتب هرودوت التسعة بالتاريخ إلى أرض البشر ، بعد أن كان التاريخ يبحث في حكومات الآلهة وأنصاف الآلهة .

وتتجلى أهمية هرودوت الحقيقية في أنه أثبت أن للمعرفة التاريخية مكانة هامة على الرغم من الاتجاهات الثابتة التي لا يدركها التغيير هي وحدها الجديدة بالمعرفة . ومعنى ذلك أن المعرفة التاريخية فاشلة لأنها تهدف إلى معرفة

Ibid, P. 27.

(٧٥)

Ibid, PP. 27 - 28.

(٧٦)

الظواهر التي يدركها التغيير^(٧٧). وقد فرق أرسطو في كتابه «فن الشعر» بين الشعر بوصفه التمثيل الأعلى والتاريخ الذي يصور الأحداث الواقعة، وأعلى من شأن الشعر على حساب التاريخ^(٧٨).

لقد استخدم هيرودوت كلمة «إيستوريا» اليونانية عنوانا لكتبه التسعة، وهي كلمة تعني البحث والاستفسار من أجل الفهم، مما جعل المعنى يتركز على خاصيتين أساسيتين من خواص الفكر اليوناني القديم، هما: المشاهدة والاستفسار. وبهذا نزل هيرودوت بالتاريخ من عالم الألهة إلى علم إنساني يهتم بالبشر ونشاطهم على الأرض. ولهذا السبب يعتبر إمام الدراسات التاريخية في التراث الأوروبي عامة. وكانت كتبه التسعة علامة على النقلة النوعية الهامة في علم التاريخ من جهة، ومنهج البحث التاريخي من جهة أخرى. ولأن كتاب هيرودوت كان يقوم على موضوع أساسي هو الحروب الفارسية التي كانت تعني بالنسبة له صداما بين حضارتين، فإنه اهتم بأن يحيط القارئ علما بكل ما يتعلق بهاتين الحضارتين. ولأن هذا العمل قد تم من منظور تاريخي / اجتماعي، فإنه قدم لنا فليضا من المعلومات الممتعة والمفيدة عن شعوب شرق المتوسط، وآسيا في القرنين السادس والخامس ق.م.^(٧٩)

بيد أن انحياز هيرودوت للديمقراطية الأثينية جعل الجزء الذي كتبه عن الفرس يقتصر إلى الدقة، بحيث اختلطت فيه العناصر التاريخية بغيرها. كما أن الجزء الذي خصصه عن مصر يحفل بالكثير مما يدخل في باب الأسطورة والخرافة^(٨٠). بيد أن شهرة هيرودوت باعتباره أول من وضع أصول علم التاريخ في تراث الغرب الأوروبي ستظل باقية، لأن اهتمامه بالمعطيات الجغرافية، ومختلف أشكال التنظيم الاجتماعي، وعادات وتقاليده الشعوب، أكسب أعماله تلك الأهمية^(٨١).

وثاني المؤرخين الإغريق الكبار، من حيث أهميته في تاريخ التاريخ، هو ثوكيديدس (Thucydides) (٤٥٦ - ٣٩٦ ق.م تقريبا) الذي كتب تاريخ الحرب البيلوبونيسية بين أثينا واسبرطة. وقد تناول الأحداث التاريخية بمنهج يختلف كثيرا عن منهج هيرودوت، إذ أنه نحل عن رواية القصص المسلية. وأخذ يروي الأحداث التاريخية على النحو الذي يراه، كما استبعد الأساطير والخرافات التي تضمنتها كتابات هيرودوت^(٨٢). فقد نزع هذا المؤرخ عن الكتابات التاريخية اليونانية غطاء الشعر الملحمي والغيبات الذي كان يحجبها، وربط الأحداث التاريخية في علاقة سببية وضعية وسياق إنساني.

(٧٧) كولنيجود، فكرة التاريخ، ص ٧٢ - ص ٧٧، هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجم الأحداث عن اليونانية صفر عفاة وقدم لها وفرحها أحد بدوي (دار العلوم، القاهرة ١٩٦٦م)، ص ١٥.

Finley, M.I., The Portable Greek Historians (New York, 14 th ed., 1972), PP. 1 - 9, Passim.

(٧٨) أرسطو طاليس، فن الشعر - مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد، ترجمة عن اليونانية عبدالرحمن بدوي (الهيئة المصرية ١٩٥٣م)، ص ٢٦ - ص ٢٧.

Barnes, A History of Historical Writing, PP. 28 - 29.

(٧٩)

(٨٠) أنظر: أحد بدوي، هيرودوت يتحدث عن مصر.

(٨١) ويدجري، المذاهب الكبرى، ص ٨٢.

(٨٢)

Barnes, OP. Cit., P. 30.

وأهم أعمال ثوكيديديس كتابه « الحروب البلبونيزية » (٤٣١ - ٤٠٤ ق.م) الذي يغطي مجالا يضيّق كثيرا عن مجال كتاب هيرودوت . وتتمثل مساهمة ثوكيديديس في تاريخ الكتابة التاريخية في أنه أرسى أسس النقد التاريخي ، وطور منهجا في البحث التاريخي على أساس أن قيمة الدراسة التاريخية لا تكمن في متعة النسبية التي يوفرها السرد القصصي ، وإنما تتمثل في دقة الأسلوب . ويرى البعض أن ثوكيديديس يستحق أن يتبوأ مكانه باعتباره مؤسس علم التاريخ بمعناه النقدي والعلمي^(٨٣) فقد أصر على نقد مصادره كما أدخل الوثائق ضمن النسيج الفعلي لروايته . ومن ناحية أخرى أوضح أن إرادة البشر عامل في صنع التاريخ .

وعلى الرغم من هذا كله ، فإن كتابات ثوكيديديس لم تخل من بعض الأخطاء الفادحة فهو لم يستوعب مفهوم الزمن والتتابع الزمني للأحداث التاريخية ، كما أنه لم يستطع أن يرى الأحداث في سياقها التاريخي الفعلي ، وإنما قدم لنا صورا تبدو جامدة مثل الصور الفوتوغرافية .

وآخر المؤرخين الإغريق الكبار هو بوليبيوس (١٩٨ - ١١٧ ق.م) . ومن حيث إنتاجه في مجال التأليف التاريخي كان متفوقا على ثوكيديديس ، ولكنه كان ندا له في تقرير الحقيقة التاريخية . وكتابه « التاريخ » مؤلف طموح في أربعين جزءا يتناول توسع الإمبراطورية الرومانية وتطور مؤسساتها حتى سنة ١٤٦ ق.م ولأنه كان يونانيا قضى معظم حياته في روما ، فقد تناول تاريخ الإغريق والرومان بروح محايدة .

وتتمثل مساهمة بوليبيوس في تقدم علم التاريخ في أنه سار خطوة أبعد من ثوكيديديس في مجال تطوير منهج البحث التاريخي . ففي الكراسة الثانية عشرة من كتابه نجد أول مقالة كبيرة عن مناهج البحث في علم التاريخ . وربما يكون من المفيد أن نقبس بعض أفكاره ، إذ يقول « علم التاريخ ذو أبعاد ثلاثة : أولا ، التعامل مع الوثائق المكتوبة وترتيب المادة التي يتم الحصول عليها من هذا السيل . ثانيا ، الطبوغرافيا ، أي مظاهر المدن والأماكن ووصف الأنهار والموانئ ، وعموما ، الملامح المميزة للبحار والبلاد ، ومسافاتها . ثالثا ، الشؤون السياسية ثم يتحدث عن المنهج الذي ينبغي استخدامه حتى تصبح الدراسة التاريخية دراسة مثمرة .^(٨٤) »

وهكذا أعطى بوليبيوس لتسلسل الأحداث التاريخية قيمة نفعية ، وأبرز أن البشر ، بسلوكهم وأخلاقهم ، أصحاب دور متفوق في صنع التاريخ . وقد أوضح ، أيضا ، أن سيطرة الرومان على العالم تعود إلى أسباب إنسانية بحتة هي « ترتيبهم لأنفسهم عن طريق غارات واسعة ومجازفات خطيرة »^(٨٥)

Barnes, A Hist., PP. 30 - 31 .

(٨٣) ويدجري ، المذاهب الكبرى ، ص ٨٤ .

Barnes, A Hist., PP. 33 - 34

(٨٤)

(٨٥) ويدجري ، المذاهب الكبرى ، ص ٩١ - ص ٩٣ .

أما مساهمة الرومان في مجال الفكر التاريخي فلم تكن ذات بال ، ومثلما كان الحال في مختلف جوانب الثقافة والفكر ، كان الإغريق أساتذة الرومان أيضا في مجال الفكر التاريخي . والدليل الواضح على أن تراث الفكر التاريخي الروماني كان فرخا من أفرار الفكر التاريخي الإغريقي هو أن معظم الكتابات التاريخية الرومانية ، حتى القرن الثاني ق.م ، كتبت باللغة اليونانية .

وفي ظل الامبراطورية الرومانية كانت المعرفة التاريخية تخدم أغراضا عملية بحتة ، إذ كانت الحوليات الرومانية Annals عبارة عن سجلات للأحداث في تتابع زمني ، وتضم أسماء الموظفين والجوائز التي منحت في المسابقات الرياضية المحلية ، والاتفاقيات التي عقدت ، أو الحروب التي تم خوضها . وكان كتاب تلك الحوليات يدونونها لكي تكون مرجعا لاستقاء المعلومات عند الضرورة .^(٨٦) لقد كان الرومان يهتمون بالإنجازات العلمية أكثر من التأملات العقلية ، ولذلك اهتموا بهذه الحوليات .^(٨٧)

وكانت حوليات فابيوس بكتور Fabios Pictor (ولد سنة ٢٥٤ ق.م) من أوائل هذه الحوليات الرومانية . بيد أن أول مؤرخ روماني كبير ، بمقاييس عصره ، كان القائد الروماني الشهير يوليوس قيصر (١٠٠ - ٤٤ ق.م) الذي تميزت كتاباته بالدقة والوضوح ، كما أن أسلوبه يتسم بالقوة والمباشرة . وكان كتاباه عن « الحرب الأهلية » و « حرب بلاد الغال » من أفضل كتب المذكرات العسكرية في العالم القديم .

أما سالست^(٨٨) Gaius Sallustius Crispus (٨٦ - ٣٤ ق.م تقريبا) فيمكن اعتباره التلميذ الروماني لثوكيديديس . ومؤلفه الأساسي عن تاريخ روما (٧٨ - ٦٧ ق.م) ضاع ولم يصلنا . ولكن رسالته Monograph عن « مؤامرة كاتيلينا » ورسالته عن « الحرب البونيقية » تكشفان عن قدرة في تحليل الشخصيات والقوى السياسية . بيد أنه أهمل العنصر الزمني كما أهمل الجغرافيا بشكل أثر سلبيا على مؤلفاته . وقد تناول سالست التاريخ باعتباره فرعا من فروع علم الأخلاق ، وكان له تأثير طاع على مؤرخي العصور الوسطى .

ويأتي ليفيوس^(٨٩) Titus Livius (٥٩ ق.م - ١٧ م) باعتباره واحدا من أهم المؤرخين الرومان ، بل إن بعض الباحثين يصفونه بأنه مؤرخ روما الوطني ، وبأنه واحد من أعظم رواة القصص في كل العصور . ويتناول مؤلفه ، الذي يعتبر ملحمة نثرية ضخمة ، تطور الدولة الرومانية العالمية . وقد اتخذ ليفيوس من البلاغيين الإغريق قدوة له . وكان هدفه من تأليف هذا الكتاب تمجيد روما وأن يثبت في الشباب روح الولاء لروما والتفاني من أجل رفعتها . ويشوبه عدم الدقة في استخدام المصادر ، فقد وجد أمامه عددا من الأساطير فضمنها روايته التاريخية ، وعادت الآلهة

(٨٦) بيرييل سالي ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبيد قاسم (ط . ثانية دار المعارف) ، ص ٢١ .

(٨٧) ويدجري ، المذاهب الكبرى ، ص ٩٠ - ٩١ .

Barnes, A Hist., PP. 36 - 37

(٨٨) سالي ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٨٩) كولنجيود ، فكرة التاريخ ، ص ٨٥ - ٩١ ، سالي ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ٢٤ - ٢٥ ، ويدجري ، المذاهب الكبرى ، ص ٩٨ - ٩٩ .

Barnes, OP.Cit., P37

مرة أخرى تطل من روايته وتتدخل في شئون البشر اليومية . وقد اعتمد ليفيوس على كتابات المؤرخين السابقين وعلى السجلات التي حفظت تاريخ روما الباكر ، وكان يعتقد أن نجاحه يعتمد على ما أوتي من صفات الأديب . ولكن الجديد في كتابته أنه سرد تاريخ روما منذ نشأتها ، وكان في ذلك معبرا عن الرومان الذين اعتقدوا أن تاريخهم فقط هو الجديد بالتدوين لثقتهم في تفوقهم على الشعوب الأخرى .

أما آخر المؤرخين الرومان الكبار فهو تاكيتوس Publius Conelius Tacitus (٥٥ - ١٢٠ م تقريبا)^(٩٠) الذي كان واحدا من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني Senato وكان من أنصار الجمهورية ، فتميزت كتاباته ضد الإمبراطورية . أهم مؤلفاته « الحوليات » التي تتناول الفترة ما بين موت أغسطس حتى سنة ٦٩ ميلادية ، « والتواريخ » الذي يبدأ بأزمة سنة ٦٩ م ويغطي فترة حكم الأباطرة من أسرة فلافيوس . وبالإضافة إلى مؤلفاته (التاريخية) الخالصة ، يعتبر كتابه عن الجرمان واحدا من أوائل المؤلفات في الأنثروبولوجيا الوصفية في تاريخ الثقافة الغربية ، فهو المصدر الوحيد عن عادات وتقاليد ومؤسسات الجرمان الاجتماعية في تلك الفترة الباكرة من تاريخهم . ويمكن تقييمه في مكانة وسطي بين بوليبيوس وليفيوس .

ومن خلال متابعة التراث التاريخي للرومان نكتشف أن مؤرخيهم افترقوا إلى الأصالة من ناحية ، وكانوا باستمرار تحت وطأة التراث الإغريقي من ناحية أخرى^(٩١) لقد كان المؤرخون الرومان تلامذة حقا على تراث التدوين التاريخي الإغريقي ، بيد أن الموضوع المفضل بالنسبة لهم جميعا كان تاريخ روما ، من حيث أصولها وتوسعها ، ومن حيث سير المشاهير فيها من القادة السياسيين والعسكريين . ولم يلق المؤرخون الرومان بالا إلى تواريخ الشعوب الأخرى .

أما وظيفة التاريخ الثقافية/ الاجتماعية ، فكانت تنحصر في إعداد المرء للحياة السياسية والعسكرية . وقد أثر هذا بالضرورة على مناهج الدراسة التاريخية بشكل سلبي ، فقد كان التاريخ نوعا من التأليف الأدبي ويستخدم للقراءة أو السماع . وكان التاريخ في النظام التعليمي الروماني يعد فرعاً من فروع البلاغة التي تؤهل الطالب في المدارس العليا للمخاطبة في المجالس العامة ، أو في ساحات القضاء ومن ثم فإنه يجب أن يتسلح بالأمثلة التاريخية باعتبارها أفضل الوسائل لجذب انتباه السامعين .^(٩٢)

(٩٠) انظر المقدمة التي كتبها (ماتينجلي H. Mattingly) للترجمة الانجليزية للكتاب Germania, Agricola : Tacitus, The Agricola and the Germania, Transl. and edited by H. Mattingly (Penguin Classics, 1970).

انظر أيضا مقدمة كينيث ولسلي في مقدمة الترجمة الانجليزية لكتاب التواريخ : Tacitus, The Histories, transl and edited by Kenneth Wellesley, (Penguin Classics 1974), Barnes, A Hist. of Historical Writing, P. 38.

(٩١) سيال ، المؤرخون في العصور الوسطى ص ٢١ ، ٤٠ - ٣٧ Barnes, op. Cit., PP. 37 - 40، ويدجري ، المذاهب الكبرى ، ص ٩٩ - ص ١٠١ .

(٩٢) سيال ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ٢٢ - ص ٢٥ ، Arthur Marwick, The Nature of History, (Macmillan, London 1973) ، P, 26.

وقد أثر هذا ، بالضرورة ، على منج الكتابة التاريخية وأسلوبها ، إذ ترسخت بعض التقاليد الأدبية التي تعين على المؤرخ أن يتبعها على حساب الحقيقة التاريخية . فقد كان على المؤرخ أن يجعل شخصيات مؤلفه تنطق بخطب أو كلام من تأليفه . كما كان تغيير التواريخ الواردة في النصوص الأصلية أمرا واردا ، فضلا عن أن نسخ المراسيم والمعاهدات كانت غير مستحبة لأنها تكسر النسق البلاغي للقصة التاريخية .

وفي الفترة التي اصطلح على تسميتها «العصور الوسطى الباكزة» ، وهي الفترة التي أعقبت العصر الكلاسيكي ، انحصرت كتابة التاريخ بشكل يكاد يكون تاما في الحوليات التي افتقرت إلى عنصر التحليل ، بل وخلت من السرد التاريخي . وعلى الرغم من أن مؤرخي العصور الوسطى غالبا ما يظهرون إحساسا بالمفهوم التاريخي أعمق مما يصفه بهم مؤرخو الكتابة التاريخية ، فإنهم خلطوا بين أفعال الانسان وأفعال الرب والقديسين . في مؤلفاتهم بشكل مثير (١٣)

لقد أخذ المؤرخون الأوروبيون في العصور الوسطى المحتوى والأسلوب عن الكتاب المقدس ، وكانت تلك قيودا شديدة كبلت البحث التاريخي والكتابة التاريخية طوال العصور الوسطى ، ولأنهم لم يتمكنوا من تطوير مناهجهم الخاصة ، فقد أخذوا أشكال وأنماط التدوين التاريخي من الرومان . ولم يكن هناك أي تأليف حقيقي في مجال التاريخ ، وإنما كان ما يحدث نوعا من الجمع وصلبها في قوالب معدة سلفا . ولم يكن مؤرخو العصور الوسطى جاهلين بالحقيقة ولكنهم كانوا يكتبون ما ينبغي عليهم كتابته حتى يوافق النموذج السائد ، سواء من حيث المحتوى المسيحي ، أو من حيث الشكل والنمط الروماني .

لقد كان المؤرخ في العصور الوسطى يجد نفسه أمام تراثين مختلفين في مجال كتابة التاريخ ، فهامي النماذج والأنماط وقواعد التأليف الكلاسيكية ماثلة أمامه من ناحية ، وها هو النظام المسيحي لتقسيم الزمن التاريخي ، وتصوره لحركة التاريخ التي تحكمها العناصر الغيبية وفكرة التاريخ الغائبة في التراث اليهودي/المسيحي من ناحية أخرى .

وعلى الرغم من أن المؤرخين الرومان القدامى قد ضمّنوا كتاباتهم عناصر غيبية باعتبارها تدخلا من الآلهة الرومانية في شئون البشر ، فإن العناصر الإلهية والغيبية في إطار فكرة التاريخ المسيحية لم تدخل في بناء الرواية التاريخية فحسب ، وإنما كانت تتحكم في سياق الرواية التاريخية أيضا . ذلك أن العناصر الغيبية في المفهوم المسيحي راسخة ومحددة ، فالرب هو خالق العالم و « كاتب » تاريخه أيضا ، ولا بد لاية كتابة تاريخية أن توائم نفسها مع هذا المفهوم الذي تصور أن التاريخ يجري في قالب محدد سلفا ولا دخل للإنسان في صناعته .

Ibid., PP. 26 – 27.

(١٣)

وقد تكفل أوغسطين Aurlus Augustinus (٣٥٤ - ٤٣٠ م)^(٩١)، المعلم الأول للكنيسة الكاثوليكية، بالترويج لفكرة التاريخ الكاثوليكية، والتقسيم الزمني المسيحي لتاريخ العالم.^(٩٢) لقد قسم أوغسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة قياساً على عمر الإنسان بمراحله الست من الطفولة إلى الموت، وقياساً على الأيام الستة التي خلق الله العالم فيها من ناحية أخرى. ولسنا هنا بصدد مناقشة أفكار أوغسطين التي يمكن بحثها في إطار تاريخ فلسفة التاريخ، بيد أننا نود أن نشير إلى أن سيادة مفهوم العصور الستة على الكتابة التاريخية في أوروبا العصور الوسطى جعل مؤرخي العصور الوسطى يزرعون تحت وطأة صيرورة قائمة للتاريخ الإنساني الذي صورته المسيحية على أنه مأساة مستمرة تنتهي بالخلاص. وكان لا بد لأولئك المؤرخين أن يضعوا مؤلفاتهم داخل إطار هذا التصور.

وإذا دققنا النظر في إنجازات مؤرخي العصور الوسطى، لوجدنا أنهم وجهوا طاقاتهم صوب كتابة ما يمكن أن نسميه «التاريخ المعاصر»، أي الحوادث الجارية وهم شهودها. إذ أن كتابة تاريخ الماضي كانت بالنسبة لهم مجرد النسخ والجمع. أما الدراسة النقدية للماضي، فكانت تتطلب من مناهج البحث ما كانوا يفتقرون إليه بسبب طبيعة الفكر السائد في مجال الكتابة التاريخية آنذاك. ففكرة التاريخ المسيحية تقوم على أساس أن الناس في التاريخ يخضعون لسلطة أعلى منهم، وحركتهم في التاريخ مجرد تنفيذ للإرادة الإلهية^(٩٣).

ومن ناحية أخرى كان أهم المؤرخين في العصور الوسطى من رجال الكنيسة الذين تولوا الزمام في الحياة الفكرية عموماً، وكان الرهبان منهم على وجه الخصوص هم الذين كتبوا المؤلفات التاريخية.^(٩٤) لقد كانت القرون الأولى من العصور الوسطى فترة ذبول وتدهور في مجال الكتابة التاريخية وفهم الحركة التاريخية، لذلك فإن من كتبوا التاريخ في تلك الفترة ضمنوا كتاباتهم عناصر غيبية لعبت الدور الحقيقي في توجيه أحداث التاريخ، كما شابت مؤلفاتهم عناصر ثقافية فجّة نتيجة لدخول العناصر الجرمانية في التركيبة السكانية لأوروبا.

E. K. Rand, *Founders of the Middle Ages*, (Dover, New York 1957), 241 - 284, Cantor, N. F., *The Medieval World*, 2nd ed. (Macmillan, London 1968), PP. 37 - 45,

على العمراوى، مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربي الوسيط، ط ٢. ثانية (القاهرة ١٩٨٧ م)، ص ٦٠ - ٦٢، بيريل سبال، المؤرخون في العصور الوسطى، ص ٣٨ - ٤٠، ويدجري، المذاهب الكبرى، ص ١٤٦ - ١٥٣.

(٩٥) قسم أوغسطين تاريخ العالم إلى ستة أقسام مثل الأيام التي خلق الله العالم فيها وجعل يوماً سابعاً يمثل يوم السبت الذي خصه الرب للراحة. هذه الأقسام التي وضعها أوغسطين هي:

- ١ - من آدم إلى الطوفان.
 - ٢ - من الطوفان إلى إبراهيم.
 - ٣ - من إبراهيم إلى داود.
 - ٤ - من داود إلى الأسر البابلي.
 - ٥ - من الأسر البابلي إلى تجسد المسيح.
 - ٦ - من تجسد المسيح إلى عصر أوغسطين. وقد تنبؤ أوغسطين أن القسم الأخير فترة وسيطة بعدها ينتهي العالم، ثم يجيء اليوم السابع الذي ينتخب فيه البشر إلى السناء.
- (٩٦) سبال، المؤرخون في العصور الوسطى، ص ٣٢، ويدجري، المذاهب الكبرى، ص ٥٤ - ١٥٥.
- (٩٧) Barnes, A Hist. of Historical Writing, P. 55.

وقد عرفت العصور الوسطى عدة أنماط من الكتابة التاريخية . فقد وجدت المدونات التاريخية Chronicles لتقوم بدور السجلات ، كما كان عامل الفخر بالماضي حافظاً على ظهور تواريخ خاصة ببعض الأسر الإقطاعية ، أو بعض الأديرة ، أو المدن . بيد أن هذا النمط لم يتضمن سوى قدر ضئيل من البحث في شئون الماضي . لأن الدعاية كانت من ضمن العوامل التي حكمت التدوين التاريخي في العصور الوسطى ، فقد تجلت في أشد صورها فظاظة وخشونة في السير الملكية ، إذ كانت أية سيرة ملكية عبارة عن مؤلف دعائي بكل معنى الكلمة^(٩٨) .

وقد شابت إنجازات مؤرخي العصور الوسطى إلى حد كبير عيوب تتمثل في قلة وسائل البحث وغياب الوعي ، والإيمان الأعمى بروايات شهود العيان . كما أن كتاباتهم ضمت عناصر غيبية اعتقدوا أنها من عوامل صنع التاريخ وجعلوها من وسائل السببية في الظاهرة التاريخية . وعلى الرغم من هذا ، فإنه من العدل أن نشير إلى أن تختلف منهج البحث التاريخي في العصور الوسطى كان ناتجاً عن ظروف المجتمع الأوربي نفسه في ذلك الحين ، إذ أن انهيار الحضارة الرومانية ، ثم الغزوات الجرمانية ، قد أنتج العنف والفوضى . وتدهور التعليم بحيث فقد أصالته وحماسه ، أو انتهى تماماً في بعض المناطق . كما أن التعصب المسيحي الكاثوليكي تسبب في ضياع الكثير من كنوز التراث الكلاسيكي . ومن جهة أخرى ازدادت صعوبة السفر وخطورته ، فضلاً عن ارتفاع تكاليفه بشكل أثر على مجال الفكر وتسبب في ضيق الأفق^(٩٩) ، ولذلك انحصر التعليم في الأديرة بشكل يكاد يكون مطلقاً وكان الرهبان يتولون كتابة التاريخ ، وقد أثرت انحيازاتهم الدينية وأفكارهم الغيبية على الكتابة التاريخية . وحقيقة أن الأديرة قد أنتجت معظم مؤلفات التراث التاريخي وهي التي صبغت المؤلفات التاريخية الأوربية في العصور الوسطى بهذه الصبغة الغيبية^(١٠٠) .

لقد كان مؤرخو العصور الوسطى يكتبون وفي ذهنهم أن يجدوا الرب . كما أن المناهج التي استخدموها كانت بالضرورة متأثرة بدرجة تعليمهم وعلاقاتهم والمكتبات المتاحة لديهم . كذلك كان كثير منهم يكتبون لإرضاء الأمير أو الأسقف أو الملك الذي يعيشون في كنفه وتحت حمايته ، ويعولون على جمهور صغير العدد من معارف حاميه أو من معارفهم وأصدقائهم . وكانت هذه الظروف من أهم عوائق انطلاق مناهج البحث التاريخي نحو العلمية والعقلانية ، بالإضافة إلى أن ظروف الحياة الفكرية والعلمية عموماً كانت تعوق مثل هذا الانطلاق ، إذ لم تكن ثمة علوم طبيعية متقدمة تدحض أخبار المعجزات من ناحية ، ولم تكن هناك علوم اجتماعية تقوم بنقد عادات وتقاليد المجتمع^(١٠١) .

(٩٨) أنظر على سبيل المثال السيرة التي كتبها اينهارد Einhard (ت ٨٤٠ م) لشارلمان Einhard and Notker the Stammer, Two Lives of Charlemagne, (Transl. By Lewis thrope, Penguin 1974).

Royal Biographies

أنظر بالتفصيل من:

سبالي ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ٦٧ - ٨١ . ومن المهم أن نشير إلى أن هذا النمط من التأليف التاريخي قد انتشر فيما بين سنة ٨٠٠ إلى ١١٥٠ م بشكل كبير .

(٩٩) قاسم عبده قاسم ، الحلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية - دراسة من الحملة الأولى ، (الطبعة الثانية - الكويت ١٩٨٨ م) ص ٩٤ - ١٠٠ .

Barnes, Op. Cit. PP. 56 - 57

(١٠٠)

Barnes, Op. Cit. PP. 97 - 98

(١٠١) سبالي ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ١٣ - ٢٠

لقد كان منهج البحث لدى مؤرخ العصور الوسطى بسيطاً بقدر بساطة مهمته في تدوين تاريخ الفترة التي عاصرها . وقد تعلم من إيسيدور الأشييلي^(١٠٢) أن كتابة التاريخ السابق على عصره تعني مجرد النسخ من مصادر سابقة . كما أن أوروبوس^(١٠٣) وضع نموذجاً قياسياً للتاريخ العالمي رتبته حسب تقسيم أوغسطين للزمن . أما الرسالة ذات الموضوع الواحد ، والسير ، والمراثي فكانت ضمن أغطاف التأليف التاريخي التي تأثرت بنماذج قديمة موروثة عن العصور الكلاسيكية .

من ناحية أخرى ، كان اعتماد مؤرخي العصور الوسطى على مصادرهم كبيراً جداً ، ولذلك كانت شخصيات العصور القديمة وشخصيات المقدس تظل عليتنا من بين سطور المؤلفات التاريخية في العصور الوسطى . أما أصحاب النزعة التأملية من مؤرخي تلك العصور ، فقد اتجهوا مباشرة إلى المدارس الديرية أو مدارس الكاتدرائيات ، أو الجامعات حديثة النشأة . وظلت الدراسة التاريخية رهينة هذه الظروف والأطر الجامدة في أوروبا العصور الوسطى فترة طويلة .

وفي وسط هذا الجو يقف أوتو أسقف فريزيا Otto of Freising (ت ١١٥٨ م) وحيداً باعتباره مؤرخاً له أفكاره عن علم التاريخ ، وهي أفكار أتيح له أن يختبرها في ضوء خبرته العملية . وأهم مؤلفاته التاريخية كتابان يتصفان بقدر كبير من العقلانية وتغلب عليهما النزعة الفلسفية ، أولهما كتاب (المدينتين) الذي كتبه سنة ١١٤٦ م ، وهو عبارة عن مسح مفرط في التشائم لتاريخ العالم تحت تأثير فكر أوغسطين . وفي هذا الكتاب أوضح أوتو الفريزي أن تاريخ الممالك العلمانية يكاد ألا يكون شيئاً غير سجل للجرائم الكريمة . أما كتابه الثاني ، فهو (أعمال فردريك بربروسا) ، وقد عكف على كتابته حتى موته وأكملة سكرتيره رايفين . وهذا الكتاب أكثر نفاذاً ويؤمن بالسجاي الأخلاقية للدولة^(١٠٤) .

ويمكن للمرء أن ينتقل منتشياً بين صفحات المدونات التاريخية والحوليات التي دونها مؤرخو العصور الوسطى ، باعتبارها مصادر للمادة التاريخية . بيد أنه في الوقت نفسه سوف يفتقد أي وعي أو إدراك عند أولئك المؤرخين بوظيفة التاريخ في خدمة الحاجات الثقافية/الاجتماعية .

وبنهاية القرن الثالث عشر حدثت تطورات جديدة في مجال الكتابة التاريخية^(١٠٥) فقد شهد القرن الرابع عشر بداية ظهور المؤلفات التاريخية المكتوبة في اللغات المحلية . وفي هذا القرن أيضاً صار المؤرخ العلماني - سواء كان

(١٠٢) إيسيدور اللاطي Isidorus Hispalensis (٥٧٠ - ٦٤٦ م) . ويعد من أهم المساهمين في التراث الفكري الغربي من القرن الرابع حتى القرن الثامن . وكان لإيسيدور تأثير كبير على التعليم في أوروبا العصور الوسطى البكرة وعلى الحياة الثقافية بوجه عام . وقد وضع عدة مؤلفات في التاريخ أهمها المدونات Chronica التي عرض فيها لتاريخ العالم منذ البداية حتى عصره . انظر :

Cantor, N.F., The Medieval History - the life and Death of a Civilization, 2nd. ed., (New York 1969), PP. 68 - 9.

على العمراوى ، مدخل إلى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١١١ - ١١٢

(١٠٣) من كتابات أوروبوس وتأثيرها على مناهج البحث التاريخي في العصور الوسطى انظر : سبال ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ٤٨ - ٥٠ .

(١٠٤) نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط ، ترجمة قاسم عبده قاسم (دار المعارف ١٩٨٣ م) ج ٢ ، ص ٥٣٧ - ٥٤٠ .

(١٠٥) سبال ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ١٧٩ - ١٨٧ .

جنديا أو موظفا مدنيا - في المقدمة نتيجة لعدة تطورات على الصعيد السياسي والفكري والاقتصادي والاجتماعي في أوروبا آنذاك . ولدنيا أمثلة على ذلك « حياة القديس لويس » التي كتبها جوفانفيل Joinville^(١٠٧) عن حياة الملك لويس التاسع الذي قاد الحملة الصليبية السابعة ضد مصر والمنطقة العربية ، والمدونة التاريخية التي كتبها القائد القطالوني (رومان مونتاز Roman Montanz) ومدونة Scalachronicon الأنجلو - نورمانية ، ومدونة فروسار Froissart عن الحروب الأنجلو/فرنسية ، ومدونات فيلاتي عن فلورنسا . . وغيرها .

ومن ناحية أخرى كان « للحروب الصليبية » أثرها على التدوين التاريخي في أوروبا العصور الوسطى .^(١٠٨) إذ كان المؤرخون الأوروبيون ، حتى عصر الحروب الصليبية ، أسرى الأطر القديمة التي ورثوها عن الرومان ، والمفاهيم الغيبية التي ورثوها عن الكتاب المقدس وآباء الكنيسة . وكانت الحروب الصليبية تجديدًا تاريخيًا كبيرًا في الحضارة الغربية الكاثوليكية . وبسبب ما تتسم به قصة الحروب الصليبية من جدة وطرافة ، وما تحفل به من إثارة تحررت كتابة التاريخ في أوروبا من الاعتماد على تقليد النماذج القديمة . ولأن العصور القديمة لم تشهد حركة تشبه الحركة الصليبية ، كان عليه أن يبحث عن منهج يناسب القصة الجديدة . وهكذا صارت الكتابة أقل مغطاة وأكثر تلقائية ، واتسعت مساحة الفعل الانساني في الرواية التاريخية على الرغم من أن الرب والقديسين كانوا ما يزالون يمارسون أدوارهم الحاسمة في الرواية . كذلك اكتسب مؤرخو الحركة الصليبية خبرات جديدة ، سواء على المستوى المعرفي أو على مستوى المنهج . لأنهم كانوا في حال مُمكنهم من التعرف على حضارتين في مرحلة الصدام والتفاعل .

لقد أنتجت « الحروب الصليبية » كتابًا علمانيين ، كما تطور الأدب العلماني بفضلها . وكان النمط الجديد من التدوين التاريخي الذي أوجدته الحروب الصليبية مناقضا للتدوين التاريخي الكنسي من عدة وجوه ، وفي الوقت نفسه ، كان هذا النمط من التدوين التاريخي يبدأ بتناول الحقائق ويبحث عن الأسباب الوضعية ، بيد أن الوسائط الغيبية في تفسير الحدث التاريخي كانت ما تزال موجودة . وإذا كان الوجود الصليبي في المنطقة العربية قد انتهى بالهزيمة ، فقد كانت لهذه الهزيمة انتصاراتها في ميدان التدوين التاريخي . لقد أخذ مؤرخو الحروب الصليبية ، الذين كتبوا عن الفشل والهزيمة ، يبحثون عن الأسباب . ولم يعد التدهور الأخلاقي والعقاب الإلهي كافيًا لتفسير ذلك فقد أخذوا جميعًا يفتشون في الأحداث التاريخية نفسها عن السبب البشري والعوامل الإنسانية الكامنة وراء ما يسجلونه من أحداث .^(١٠٩)

بيد أن التدوين التاريخي في أواخر العصور الوسطى اعترته تطورات هامة نتيجة لتغير موقف الناس من الماضي . فمن يدرس تراث التدوين التاريخي في العصور الوسطى يجد نفسه وقد اعتاد الحياة في عالم فكري شخصياته كلها تتميز بالاستمرارية من الماضي السحيق حتى الحاضر . ففي صفحات كتب مؤرخي العصور الوسطى يستطيع

(١٠٦) انظر نص هذه السيرة الملكية في الترجمة الانجليزية، (Penguin Classics، Joinville and Villedhardouin; Chronicles, of the Crusades، (1973).

(١٠٧) قاسم حميد قاسم ، الحروب الصليبية - نصوص وثائق (القاهرة: ١٩٨٥ م) ، ص ٢٥ - ص ٣٧ .

(١٠٨) سبال ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ١٢٧ - ص ١٥٨ .

المرء أن يحاور آدم وحواء ، أو يوليوس قيصر ، أو شارلمان ، كما لو كانوا من جيرانه . وهو ما يعني أن الماضي كان موجودا ومستمرًا في الحاضر بشكل مثير . وكان ذلك راجعًا إلى عدم إدراك صيرورة الزمن من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان راجعًا إلى تخلف مناهج البحث التاريخي التي كانت تحاول قولبة الأحداث التاريخية داخل قالب الذي وضعه أوغسطين ، أو الأئمة الكلاسيكية . فقد كان مؤرخ العصور الوسطى يتصور أن الماضي شبيه بالحاضر .

ولكن القرن الرابع عشر شهد انكسار هذه الاستمرارية ، ولم تعد المسألة مسألة انحذار من عصر أفضل إلى عصر أسوأ . وفي الكتابات التاريخية ، العلمانية والكنيسة على حد سواء ، كان التناقض بين الماضي والحاضر يبدو كثيرًا بحيث يحول دون الاعتقاد باستمرارية الماضي . وكان المؤرخون « الإنسانيون » في القرن الرابع عشر وما بعده هم أصحاب الفضل في هذا الاتجاه .

لقد كان الماضي موجودًا بالفعل في كتابات مؤرخي العصور الوسطى ، ولم يكن للمؤرخين الإنسانيين فضل اكتشاف الماضي من جديد ، ولكنهم نقلوا علم التاريخ نقلة نوعية هامة عندما حاولوا اتخاذ منظور يعالجون به تاريخ هذا الماضي . ويبدو منظور الإنسانيين للتاريخ خاطئًا اليوم ، إذ كانت أحكامهم على الماضي مشوشة ، ولكن مساهمتهم في تطور الدراسة التاريخية ومناهجها كانت كبيرة بالقدر الذي يجعلنا نقرر أن التدوين التاريخي بدأ في القرن الرابع عشر .

ومن المهم أن نشير إلى أن البحث الحديث أثبت أن الفترة التي اصطلح على تسميتها « عصر النهضة » Renaissance قد خرجت تدريجيًا من تراث العصور الوسطى ، إذ أنها في حقيقتها كانت حركة إحياء للاهتمام بالثقافة القديمة . وفي معناها العريض يبدو أن تسمية هذه الحركة ، في جانبها الأدبي ، بالإنسانية Humanism يبدو أكثر إقناعًا .

ومعنى هذا أن الحركة لم تكن مجرد (إحياء) للآداب الكلاسيكية ، ولكنها كانت أيضًا حركة تعيد الاعتبار لاهتمامات الإنسان ومصلحته ورؤيته العلمانية على النحو الذي كان سائدًا في الثقافة الكلاسيكية . لقد كانت في أصلها رد فعل عاطفي شاعري في مواجهة الموقف المتزمت الضيق لرجال الكنيسة اللاهوتيين ، ولكنها لم تؤسس أية ثورة في اللاهوت أو الفلسفة الاجتماعية ، وكان الإنسانيون مرحلة وسطى بين (المدرسين) الذين عرفتهم العصور الوسطى ، والفلاسفة الاجتماعيين والنقاد المحدثين .^(١٠٩)

وكان لهذه الرؤية الجديدة تأثيرها البطيء والجزئي على مناهج الدراسة التاريخية . ويكشف تراث التدوين التاريخي في القرن الرابع عشر عن أن ثمة تغير في مناهج البحث وفي المنظور قد بدأ يفرض نفسه ، بيد أن المناهج والأفكار القديمة كانت ما تزال سائدة . فقد استمرت هذه الأفكار القديمة في الوجود أكثر من ألف سنة ، وهي حقبة طويلة في تاريخ الفكر لا يمكن أن تنمحي آثارها ببساطة .

وقد كانت هناك فروق كبيرة ونوعية في طبيعة ونوعية إنتاج مؤرخي تلك الفترة ، بيد أنه كانت هناك خصائص أساسية في الكتابة التاريخية . فقد كانت النزعة الإنسانية في مجال كتابة التاريخ تعني في المحل الأول البحث عن النصوص الأصلية الكلاسيكية ، ثم المقارنة والنقد وضبط النصوص المكتشفة . وقد نشأ عن التناول النقدي للنصوص الكلاسيكية إحساس أولي بقيمة الدراسة النقدية للوثائق التاريخية^(١١٠) وكانت تلك خطوة هامة في سبيل نقل مناهج البحث في الدراسات التاريخية إلى آفاق أخرى غير الإيمان المطلق بالمصادر على نحو ما كان سائدا في العصور الوسطى .

لقد تحول الإنسان مرة أخرى صوب نموذج المؤرخين الكلاسيكيين . وتمثلت أهم إنجازاتهم في المنهج العقلي العلماني الذي عالج مسائل كانت تعد من قبل جزءا من الأسرار الإلهية ، كما أنهم نجحوا في تطوير شكل من أشكال الدراسة النقدية للتاريخ . وعلى أية حال ، فإن فكرة الهوامش التي تحوي الشروح والتعليقات كانت إنجازا لمؤرخي أوروبا في العصور الوسطى^(١١١) وأغلب الظن أنهم تعلموها من المسلمين . وقد استخدم فاللا (Valla ١٤٠٧ - ١٤٥٧ م) هذا المنهج لكشف زيف (هبة قنسطنتين) الشهيرة والتي أقامت عليها الكنيسة مزاعمها طوال العصور الوسطى في نزاعها ضد الدولة .

لقد كانت ظروف التطورات التي مرت بها أوروبا آنذاك من أهم عوامل تطور الدراسات التاريخية . وذلك أن حركة الكشف الجغرافية خلقت طلبا على المعلومات الجغرافية والتاريخية أيضا ، كما أن اختراع الطباعة أعطت دفعة قوية لوسائل الاتصال المكتوبة وقد شهدت أوروبا ثورة علمية وفكرية أخذت تتصاعد حتى تبلورت في رجل مثل اسحق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧ م) فقد أدرك المفكرون والعلماء حقيقة التغير واهتموا بها ، وكان لعلم التاريخ شأنه في هذا المجال أيضا^(١١٢) وقد أدت التطورات التي لا يتسع المقام لذكرها إلى أن أصبح التاريخ لدى الإنسانين (تاريخيا) ، بمعنى أن تركيز الإنسانين على ثقافة فترة مضت منذ زمن بعيد قد كسر إطار « التاريخ المعاصر » الذي كان مؤرخو العصور الوسطى يحصرون أنفسهم في نطاقه ، كما تخلوا عن تقليد النماذج الكلاسيكية في شكلها ، وإن أخذوا عنها اهتمامها بالإنسان . ومن الواضح أن الإنسانين أدخلوا على الكتابة التاريخية مزيدا من التحسينات الأدبية والفكرية ، ولكن تقدمهم في مجال مناهج البحث كان أبطأ وأقل كفاءة . فالواقع أنهم كثيرا ما انتهكوا الحقائق التاريخية لكي تتوافق مع مقتضيات البلاغة وسياق الأسلوب الأدبي .

ويمكن ملاحظة الانتقال في الأنماط والمناهج في كتابات المؤرخين الإنسانين متجسدة في كتابات البرتينوس موساتوس (Albertinus Musatus ١٢٦١ - ١٣٣٠ م) ، فقد كتب بلغة لاتينية كلاسيكية ممتازة عن الحوادث التاريخية وزعماء إيطاليا عند مطلع القرن الرابع عشر . ويعتبر (فرانسيسكو بترارك) بمثابة الأب الحقيقي للمذهب

Barnes, A Hist. of Historical Writing, P. 99.

(١١٠)

Arth Marwick, the Nature of History, PP. 28 - 29.

(١١١)

ويدجري ، المذاهب الكبرى ، ص ١٧٩ - ص ١٨٠ .

Arthur Marwick, Op. Cit. P. 28.

(١١٢)

الإنساني في إيطاليا ، والكتابة التاريخية الإنسانية أيضا . إذ كان يمسك بأعنة اللغة اللاتينية الكلاسيكية ، وتركز اهتمامه بالتاريخ في مجال الفكر والثقافة . وقد ألف كتابا عن تاريخ روما تناول فيه تراجم حوالي واحد وثلاثين بطلا تقليديا من أبطال التاريخ الروماني ، من رومولوس إلى يوليوس قيصر . وبينما تشكك بترارك كثيرا في أساطير العصور الوسطى ، فإن تشكك في الأساطير الواردة ضمن الكتابات الكلاسيكية كان أقل حدة - وقد شابت منهج (بترارك) في كتابة التاريخ عيوب كثيرة ، ربما كان أبرزها ناتجا عن إيمانه بأن العصور الوسطى كانت (عصور الظلام) التي أعقبت الفترة الرومانية ، كما أنه فسر تاريخ الثقافة الرومانية في ضوء معطيات عصره هو^(١١٣) .

أما « نيكولو مكيافيلي » (١٤٦٥ - ١٥٢٧ م) فهو أول من كتب التاريخ باللغة الإيطالية ، ويعزى إليه فضل تطبيق منهج جديد في مجال الدراسة التاريخية . إذ أن مناقشاته في مجال علم التاريخ قد قامت على أساس الدليل ، وليس بناء على تمييز لرؤية أو نظرية مسبقة . وبغض النظر عن كتاب « الأمير » الذي اشتهر به ، فقد نشر سلسلة من المقالات (سنة ١٥١٦ م) عن المؤرخ الكلاسيكي ليفيوس ، كما كتب عن تاريخ فلورنسا (سنة ١٥٢٢ م) . ويعتبر كتابه الأمير (١٥٢٣ م) كتابا في الفلسفة السياسية وفي التاريخ أيضا ، لأن التاريخ لم يكن علما مستقلا في الغرب الأوروبي حتى القرن التاسع عشر . وقد كان هذا الكتاب تقدما واقعا للتاريخ والسياسة والدبلوماسية في إيطاليا في القرن السادس عشر^(١١٤) .

ويمكننا أن نجد في كتابات مكيافيلي تحديا واضحا للأفكار التي حكمت مناهج كتابة التاريخ في العصور الوسطى ، لا سيما في مسألة العلاقة بين الدولة والكنيسة . ومن ناحية أخرى اتفق مكيافيلي مع الإنسانيين في اهتمامه بالدولة السياسية ، ورأيه بعدم مشولية الساسة أمام رجال الكنيسة ، ولكنه اختلف مع سائر الإنسانيين في عدم اهتمامه بالفرد الذي كان محور الحركة الإنسانية بشكل عام .

والحقيقة أننا لا نستطيع في هذه الدراسة أن نقوم بحصر عام للمؤرخين « الإنسانيين » في أوروبا عامة وفي إيطاليا على وجه الخصوص^(١١٥) ، بيد أننا نلاحظ أن الحركة الإنسانية بشكل عام كانت محدودة بحقيقة مؤداها أن هذه الحركة كانت رد فعل للتصور الكاثوليكي للتاريخ ورؤية مؤرخي العصور الوسطى لحركة التاريخ باعتبارها مجرد حركة لتحقيق الخلاص الإنساني . ولذلك كان انجاء الحركة الإنسانية انجاءها نحو الماضي ، وقدموا قليلا من التطوير في مناهج البحث التاريخي بسبب هذا الموقف الذي كان يشدهم إلى الماضي الكلاسيكي الذي رأوه مجيدا وجديرا بالإحياء .

وقد شهدت أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر مشروعات علمية كبرى تمخضت عن تكوين مجموعات ثمينة من الوثائق . وكان توفر هذه المادة « التاريخية » الخام من أهم عوامل بزوغ المناهج النقدية في الدراسات التاريخية .

Barnes, A Hist. of Historical Writing, PP. 101 - 102.

(١١٣)

Arthur Marwick, The Nature of History. P. 28.

(١١٤)

ويدجري ، المذاهب الكبرى ، ص ١٨٠ - ١٨٩ .

Barnes, A Hist. of Historical Writing. PP. 101 - 120.

(١١٥) انظر

وفي عصر التنوير ، الذي بدأ مع بداية القرن الثامن عشر ، بدأ المؤرخون الفرنسيون يشنون الهجوم الأخير على القاعدة اللاهوتية التي قامت عليها مناهج الكتابة التاريخية في العصور الوسطى ، والتي اكتسبت دفعة إحيائية إبان الصراع بين أنصار الإصلاح الديني وخصومهم ، ^(١١٦) وقد جسد هذا الاتجاه عدد منهم جاك بوسيه (١٦٢٧ - ١٧٠٤ م) ، ومونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٧٨ م) .

ومن بين هؤلاء جميعا لا يمكن أن يعزى فضل النقلة النوعية في مناهج البحث التاريخي إلّا لفولتير ^(١١٧) ، الذي يميل الكثير من المؤرخين إلى اعتباره مؤسس علم التاريخ بمفهومه الحالي في الغرب . وكان أول مؤلف ينشره فولتير هو « تاريخ شارل الثاني عشر Histoire de Charles XII » ملك السويد ونشره سنة ١٧٣١ م . ويعد قطعة ممتازة في التأليف الأدبي . أما أهم مؤلفاته من حيث تطورها المنهجي فهو كتابه « عصر لويس الرابع عشر » الذي يصفه البعض بأنه أول مؤلف تاريخي حديث . ففي هذا الكتاب تحل فولتير تماما عن النظام الحولى ، وعن نظام التابع الزمني للأحداث ، ونظم كتابه على أساس من ترتيب الموضوعات . ومن ناحية أخرى ، كانت تلك هي المرة الأولى التي يتناول فيها كتاب تاريخي حضارة أوربية تناوّلًا شاملاً .

كما أن مقالته عن عادات الأمم وروحها (١٧٥٦ م) يعتبر عادة أول مؤلف في التاريخ العالمي بالمعنى الحقيقي للمصطلح . وكانت هذه أول مرة يتم فيها الاعتراف بفضل الحضارات الشرقية والحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الأوربية . وقد وجد فولتير كثيرا ممن ساروا على منهجه من المؤرخين في سائر أنحاء الغرب الأوربي . وقد نبه فولتير وتلاميذه إلى أن الأمور الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، تدخل في صميم عمل المؤرخ شأن أخبار البابوات والملوك .

لقد تقدم مؤرخو القرن الثامن عشر كثيرا صوب التاريخ الاجتماعي والتاريخ الثقافي بيد أن ثلاثة عيوب أساسية كانت تشوب مناهج البحث في ذلك القرن ، أولها : عدم إدراك المؤرخين لحقيقة التطور والتغير الإنساني بحيث خلت مؤلفاتهم تماما من أي إحساس بهذا . وثانيها : أنه على الرغم من أن الدراسة البحثية قد استمرت إلى جانب التفسير والتحليل ، فإن الرابطة بين جميع المعلومات البحثية وتحليلها كانت ضئيلة إلى حد بعيد . بمعنى أن مؤرخي تلك الفترة اهتموا بجمع الوثائق والأدلة ، لكنهم نادرا ما كانوا يعكفون على تحليلها . وثالثها : أنه حتى في القرن الثامن عشر لم يكن التاريخ مادة دراسية مستقلة في مدارس وجامعات أوربا ، ولم يكن يدرس مستقلا سوى في قصور الأمراء ورجال الدولة باعتباره من أدوات التربية والتدريب السياسي . ^(١١٨)

(١١٦) عن تأثير حركة الإصلاح الديني على الكتابة التاريخية انظر :

Barnes, A Hist, of Historical Writing, PP. 121 - 135.

(١١٧) حسين مؤنس ، التاريخ والمؤرخون (دار المعارف ١٩٨٤ م) ، ص ٦٧ - ٦٨ .

Arthur Marwick, The Nature of History, P. 30; Barnes, Op. Cit. PP. 152 - 156.

Arthur Marwick, Op. Cit., PP. 33 - FF.

(١١٨)

وكان الهجوم على نقاط الضعف الثلاث في الدراسة التاريخية هو الذي فتح الطريق أمام ظهور التاريخ بمعناه الحديث في أوروبا ، أي التاريخ بوصفه دراسة أكاديمية . فبعد الهبات الثورية الكبرى في القرن الثامن عشر لم يعد من الممكن تصديق القول بأن طبيعة الإنسان لا تتغير ، كما لم يعد أحد يؤمن بثبات المؤسسات الاجتماعية أو جمودها . وكانت مساهمات ليوبولد فون رانكه ^(١١٩) Leopold Von Ranke (١٧٩٥ - ١٨٨٦) في مجال مناهج البحث التاريخي من الصرامة بحيث استوجبت أن يعتمد المؤرخ على المصادر المعاصرة في إعادة تصوير الماضي ، كما حدث بالضبط .

ولكن هذا الموقف الذي اتبعه (رانكه) وتلاميذه كان جزءا من النزعة الرومانسية التي تملك الأوربيين آنذاك ، وقد أدى إلى إحساس المؤرخين بالفشل حين عجزوا عن تحقيق هذه التوصية . بيد أن هذا الموقف ، من ناحية أخرى ، أحدث تطورا هاما في مناهج البحث بسبب الأصرار على دقة الوثائق . وبدأت الدراسات النقدية للمصادر والوثائق التاريخية تفرض نفسها ضمن مناهج البحث التاريخي . والكثير من كتبوا في تاريخ الكتابة التاريخية يعتبرون رانكه ومدرسته مسئولين عن صرامة مناهج البحث في دراسة التاريخ تحقيقا لقول (رانكه) بأن « الصرامة في تقديم الحقائق التاريخية هي القانون الأسمى في كتابة التاريخ » . ^(١٢٠)

ولكل مؤرخي تلك الفترة نقاط الضعف التي تشوبهم بطبيعة الحال ، إذ أن (رانكه) قد ألزم نفسه وتلاميذه . بمجرد ضيق للغاية في دراسة التاريخ من خلال الدبلوماسية وأحوال الساسة والسياسة في مواجهة المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ الحضارة ، ثم وقعوا فريسة للصياغات الرومانسية والمبالغة بسبب عدم دقة مناهجهم . ولكن النتائج الأخيرة لمدرسة « فون رانكه » تتجسد في الحقيقة القائلة بأنه أوجد الدراسة التاريخية بمعناها الحديث ^(١٢١) ، ولكنها - في النصف الأول من القرن التاسع عشر - كانت ما تزال بحاجة إلى التهذيب والتطوير حتى تصل الدراسة التاريخية في الغرب إلى ما وصلت إليه الآن .

وعلى الرغم من تأثير أعمال مدرسة « رانكه » ، وعلى الرغم من حلقات الدراسة والنقاش (السمنار) التي كان « رانكه » يعقدها لتلاميذه في الربع الأول من القرن التاسع عشر ، فإن هذا القرن انصرم دون أن تتحول دراسة التاريخ إلى نظام أكاديمي في أوروبا الغربية ، أو في أمريكا الشمالية .

ولكن ذلك لم يمنع وجود بعض المظاهر والدلائل على تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية تمثلت في ظهور عدد من الكتب تتناول طرق البحث في التاريخ ، مثل كتاب « لانجلوا وسينووس Charles Seignobos, C.V.

(١١٩) حسين مؤنس ، التاريخ والمؤرخون ، ص ٧٤ - ٨٢ ، ويدجري ، المذاهب الكبرى ص ٣٠٤ - ٣٠٦ .

Arthur Marwick, Op. Cit., P. 34; Barnes, A Hist. of Historical Writing, PP. 245 - 248.

Arthur Marwick, Op. Cit., PP. 36 - 37.

Idid., PP. 38 - 40.

(١٢٠)

(١٢١)

Langlois (١٨٥٤ - ١٩٤٢ م) الذي يعده البعض من أفضل ما كتب في طرق البحث التاريخي^(١٢١) والذي ظهر تحت عنوان «مقدمة لدراسة التاريخ». وأهم ما أكد عليه هذا الكتاب هو ضرورة وجود منهج واع لدراسة التاريخ. وقد تأثر بها كثير من المؤرخين بشكل تبلور في ذلك التطور المثير الذي لحق بمناهج البحث في الدراسات التاريخية في القرن العشرين.^(١٢٢)

لقد شهد القرن التاسع عشر ما يمكن أن نسميه ثورة في الدراسات التاريخية، وقد كانت هذه الثورة هي الأساس الذي قامت عليه الدراسات التاريخية الحديثة. وأصبح التاريخ علما يهاجم المجهول من أجل الكشف عن غوامضه. وبينما كانت جذور العلم التاريخي في القرن العشرين تضرب بجذورها في عمق تربة مناهج البحث التاريخية التي تم إرساؤها في القرن التاسع عشر، فإن القرن العشرين شهد أيضا عددا من ردود الفعل تجاه الصياغات الضيقة التي حبس فيها «رائكه» واتباعه التاريخ. وظهرت فروع متعددة جديدة من الدراسات التاريخية، ولكن كلا من فروع الدراسات التاريخية الجديدة لم يكن «جديدا» تماما كما يحب المتحمسون له أن يعتقدوا، إذ أن الدراسات التاريخية في القرن التاسع عشر كانت قد طورت بالفعل عددا من الاتجاهات الجديدة في مجال التاريخ الاقتصادي، والتاريخ الاجتماعي، والتاريخ الثقافي، وتاريخ النظم والمؤسسات الدستورية. وكانت هذه الاتجاهات الجديدة نتاج البيئة الفكرية التي حكمتها ظروف نشوب الحرب العالمية الأولى من جهة، ونتيجة لعدم اليقين الذي هز مسلمات القرن التاسع عشر نتيجة شيوع النظرية النسبية.^(١٢٣)

وليس بوسعنا أن نتابع الاتجاهات الجديدة في فروع الدراسات التاريخية في القرن العشرين في هذه الدراسة، لأن هذا الموضوع يستحق في تقديرنا أن تخصص له دراسة مستقلة. بيد أننا سنحاول أن نشير إلى أهم الخطوط العريضة لهذا التطور الحاسم في مجال الدراسات التاريخية سواء من حيث التراكم المعرفي، أو من حيث التطور النوعي المذهل في مناهج البحث في الدراسات التاريخية.^(١٢٤)

لقد تسببت الظروف التي حكمت أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية في تحول كثير من المؤرخين إلى تغطية كافة أنشطة الإنسان في الكون باعتبارها مجالات لعمل المؤرخ، سواء كان ذلك في مجال الفكر، أو الاقتصاد، أو الاجتماع أو السياسة، فضلا عن التاريخ العلمي والتكنولوجي. وقد ساعدهم على ذلك تقدم علوم أخرى تهتم بالدراسات الإنسانية، مثل علم النفس والعلوم الاجتماعية، كما حفزهم تقدم التصنيع الحديث، ونمو الحياة الحضرية، وتطور المدن فضلا عن تزايد النزعة العلمانية. وظهرت فروع للدراسة التاريخية في كل مجال، فظهر «التاريخ الفكري» و«تاريخ العلوم» و«تاريخ التكنولوجيا»، مثلما رسخت أقسام «التاريخ الاقتصادي» و«التاريخ الاجتماعي» و«التاريخ السياسي الدستوري»، فضلا عن «التاريخ العالمي» و«تاريخ الحضارة»

(١٢٢) حين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، ص ١٥٣ - ١٥٦.

Arthur Marwick, the Nature of History, PP. 50 - 54.

Idid, P. 56 -

Barnes, A Hist. of Historical Writing, PP. 291 - 309; Arthur Marwick, The Nature of History, PP. 56 - 71.

والثقافة . كذلك ظهرت جمعيات متخصصة في فروع الدراسات التاريخية المختلفة . ومن البديهي أن كل فرع قد طور مناهج البحث الخاصة به ، وظهرت أسماء عديدة لمتخصصين لامعين في كل فرع من فروع الدراسات التاريخية .



هذه بشكل عام الخطوط العريضة لتطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية في رحلة طويلة عبر الزمان ، منذ أن بدأ التاريخ يجبو في حجر الأسطورة حتى صار علماً له مناهجه وفروعه المختلفة وتخصص له الكراسي في الجامعات ، كما تقام له مراكز البحث والأقسام العلمية .

والأمر الذي يلفت الانتباه أن علم التاريخ كان يتطور استجابة لتطور المجتمع نفسه من ناحية ، كما أن تطور مناهج البحث في التاريخ لم يكن يتم بمعزل عن تطور العلم التاريخي نفسه . وثمة علاقة جدلية بين تطور مناهج البحث التاريخي والتطور المعرفي للعلم نفسه . ومن ناحية أخرى ، كانت المناهج القديمة تظل موجودة إلى جانب المناهج الحديثة في بعض الأحيان طالما كانت تخدم غمطاً من أنماط الكتابة التاريخية التي تليي حاجة ثقافية / اجتماعية . وقد تجلّى هذا كله واضحاً من خلال متابعتنا للخطوط العامة لتطور الكتابة التاريخية في التراث العربي الإسلامي ، وفي تراث الغرب الأوروبي أيضاً .

